أحمد بهجت

# أمير الأنبياء



بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب المختار

كتاب المختار
أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩
ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١
تليفاكس ٤٩٠٩٥٤١
محمول ٥٨٥٢٧٦٢ / ٠١٠ - ٠١٠/١٥٢٨٢٧٠

## عطر المولد

تهب على الروح أنوار المولد ونفحاته العطرة .. فكل عام يحتفل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بالمولد الشريف .. برغم اختلاف الألسنة والألوان والثقافات والهوى ..ولقد كان ميلاد الرسول إيذانا بميلاد ديانة الإسلام، وكانت الحياة فى حاجه إلى الاثنين معا .. وقد جاء على الدنيا وقت ساد فيه ظلام كثيف وانطفأت شموع التوحيد فى الأرض، ولم يعد هناك غير قلة من الغرباء الموحدين .. وفى هذا الوقت .. شاءت رحمة الله تعالى أن يولد الرسول ويكبر ويبعثه الله بآخر رسالات السماء إلى الأرض .

كان الرسول استجابة لدعوة إبراهيم خليل الله تعالى، وكان تصديقا لبشرى عيسى روح الله وكلمته .. وقال الله تعالى فى مجال تكريمه : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .. صلاة الله تعالى هى رحمته وبركاته، وصلاة الملائكة ثناء واستغفار وصلاة المومنين تكريم وتعظيم .. وقبل الرسول كان الله تعالى يرسل أنبياءه رحمة لقومهم وزمانهم، بينما أرسله الله تعالى

رحمة للعالمين، جاء رحمة مطلقة لقومه وزمانه، ولمن يجيىء بعدهم من الأقوام والأزمنة على تعاقب الأيام وتوالى الدهور .

قال تعالى فى حق رسوله وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ..

ولقد كان جوهر دعوات الأنبياء السابقين عليه هو الإسلام، وكان عنوان رسالته هو الإسلام، فتأمل أنت أى إعجاز أن يكون العنوان جوهرا ويكون الجوهر عمقا بلا قاع وقمة بلا نهاية .

ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .. كان يصافح رجلا ذات يوم، وتزلزل الرجل من هيبة الرسول، فقال له تواضعا : هون عليك .. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (القديد هو الخبز الجاف الخشن، وهذا يوحى عادة بفقر أصحابه) .



## عام الفيل

ولد الرسول ﷺ في عام الفيل، وهو عام تاريخي وقعت فيه معجزة كان هدفها حماية رسول الدين الجديد الذى لم يُولد بعد، حتى إذا كبر وبدأت بعثته لم يجد أمامه احتلالا أجنبيا يحصر الدعوة ويوقف انتشارها .. اقترب زحف أبرهة بجيشه من مكة .

كان أبرهة حاكما حبشيا لليمن، فى الفترة التى خضعت فيها اليمن للحبشه .. وكان أبرهة يرى اهتمام العرب بزيارة البيت الحرام، فبنى معبدا ليقصده الناس بدلا من الكعبة ولكن أحدا لم يذهب إليه .. وقرر أبرهة هدم الكعبه حتى لا يجد الناس مناصا من الذهاب لمعبده .. وتصدى العرب له فى أكثر من جيش، ولكنه هزم كل من تصدى له، وكان جيشه جبارا لا يصمد له بشر .. وكان يستخدم الفيلة فى جيشه كما نستخدم نحن الدبابات .. ولما كان أبرهة بين الطائف ومكة، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة وهناك اغتصب أموالا من قريش وغيرهم وكان بين ما اغتصبه مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو كبير قريش وسيدها.

وذهب عبد المطلب إلى أبرهة وسأله أبرهة ما حاجتك، قال حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير أصابها لى .. قال أبرهة لعبد المطلب : لقد خيبت ظنى، أتكلمنى فى مائتى بعير وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، فلا تكلمنى فيه ؟!.. قال عبد المطلب: أنا رب الإبل.. وللبيت رب يحميه .. قال أبرهة : لن يحميه منى

قال عبد المطلب : أنت وذاك .

وجاء اليوم الحاسم فى الهجوم وفوجىء أبرهة بأن الفيلة ترفض التحرك ، فإذا تحركت أثارت فزعا فى الجيش، وفوجىء أبرهة بأن السماء تظلم فجأه، وتمتلىء بطيور سوداء فى صفوف وراء صفوف .. وراحت تقصف الجيش بحجارة من سجيل، وانفتحت أبواب الجحيم على الجيش، وهلك الجيش وأبيد تماما وتحطم قطعا صغيرة محترقة .. ونزل قرآن فى هذه المعجزة فقال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ ووسط أفراح مكة بنجاتها ونجاة الكعبة، ولدت آمنة بنت وهب طفلها اليتيم محمد بن عبد الله ﷺ .

## شكل الحياة

كيف كان شكل الحياة عندما وُلد الرسول ﷺ ؟.. كان عطش الدنيا عظيما إلى الحب والعداله والرحمة .. لقد مرت الآن ستمائة سنة على ميلاد المسيح، وهجر اليهود وصايا موسى، وتسللت العقائد الوثنية إلى بعض فرقهم .. وشاب صفاء التوحيد ما شابه من عكارة .. وأغارت الوثنية على الأرض فلم تجد من يوقفها، وهكذا استسلمت لأيدى الدجالين وحين بدا واضحا أن قلب الدنيا قد أصيب بالجفاف، نبع من المشرق فجأة ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم، وكانت معجزة كبرى أن يخرج هذا النبع الصافى من قلب أعظم الصحراوات جفافا فى العالم .. صحراء الجزيرة العربية، يقول الحديث الشريف فى هذه الفترة : إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.على مسافة خطوات من مكان مولده فى مكة صلى الله عليه وسلم ، تملأ الأصنام ساحة البيت العتيق، ولقد بنى هذا البيت ليكون مكانا يعبد فيه الله وحده، وها هو يتحول إلى متحف للوثنيات المختلفه .. وبعيدا عن مكة كانت يثرب تمتلئ

باليهود الذين جاءوها هربا من اضطهاد الرومان، وحطوا كالذئاب على أخصب الأرض واحتكروا تجارة المتعة .. وشيدوا مستعمراتهم مستغلين ضعف الوجود العربى وانقسامه على نفسه، وعلى حين كان اليهود يعبدون الذهب، ويجيدون التجارة، ويتفننون فى المؤامرات، كان العرب يعبدون الحجارة ويجيدون القتل، ويتفننون فى قرض الشعر وتعليقه على أستار الكعبة .

وبعيداً عن مكان الميلاد كانت روما تشبه نسرا عجوزا لم يفقد قوته، وكان الرومان يعبدون القوة ويجيدون القتال .. وإلى الشرق من شمال البلاد بلاد العرب كان الفرس يعبدون عناصر الطبيعة التى سخرها الله للإنسان .. كانوا يعبدون النار والماء، إن النار تشتعل فى معابدهم فيركع لها الناس، وهناك بحيرة ساوا التى تعتبر فى نظرهم مقدسة، وكان كسرى عندهم مقدسا هو الآخر، وكان الفرس قد غلبوا الروم واليونان وصاروا أكبر القوى الموجودة فى الارض.ووسط هذا الجو جاء ميلاد الرسول ﷺ .

## معجزته الأولى

يقال إن ميلاد الرسول ﷺ كان إيذانا بانطفاء نار المجوس، وجفاف بحيرة ساوة، وسقوط شرفات فى قصر كسرى .. يقول البوصيرى فى ذلك :

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طـيب مبتـدأ منـه ومخـتتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالغيظ حين ظمى

ويرى بعض العلماء أن هذا الكلام تعبير خاطىء عن فكرة صحيحة .

لقد كان ميلاد الرسول ﷺ إيذانا بزوال الظلم واندثار عهده، مثلما كان ميلاد موسى إيذانا بتخليص بنى إسرائيل من ظلم فرعون .. غير أن رسالة الإسلام الأخيرة كانت أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى، وكان جند القرآن الكريم أعدل رجال وأجرأهم على كسر شوكة الطغاة، طاغية إثر طاغية، فلما أحب الناس بعد انطلاقهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية، ومحمد ﷺ غنى عن هذا كله، لأن نصيبه من الواقع المشرف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها كما يقول الشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه فقه السيرة، وهناك من يرى أن نصيب الرسول ﷺ من الواقع المشرف يتجاوز هذه الروايات وأشباهها، إلا أن هذا لا يمنع من وقوع هذه الخوارق .. وسوف نلاحظ فى سيرة الرسول ﷺ أن الخوارق أحاطت بالكعبة قبل مولده عام الفيل، فلما بُعث بالرسالة إلى الناس صارت معجزته الأولى هى شخصيته وكتاب القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالى .

## الرسالة الخاتمة

يتفق جميع الأنبياء على عبارة يسوقونها لأتباعهم .. وهى عبارة تقول يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. قيلت هذه الدعوة من أيام نوح .. حتى خاتم النبيين محمد، وقد اختلفت رسالات الأنبياء فى الشرائع واختلفت فى المعجزات فجاءت الشرائع والمعجزات متفقه مع العصر الذى بُعث فيه كل نبى .. إنما اتفقت رسائل الأنبياء جميعا فى التوحيد .. وتنزيه الله وتقديسه وقد اقتضت مشيئة الله بقوم موسى أن يرفع الجبل عليهم ليؤمنوا بالتوراة .. أما النبى العربى فلم يقهر أحدا على شىء، وفتح أبواب الدعوة بآية تقول :

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ .

وعلى حين أحيا عيسى بن مريم الموتى وأخرجهم من قبورهم، أحيا محمد بن عبد الله موتى القلوب الذين لا يدركون، وأخرجهم من ظلمة الجهل وخبل الشرك إلى نور التوحيد .. ولقد كان سليمان نبيا وملكا فى نفس الوقت، وسأل الله أن يؤتيه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فكان الجن يشتغلون فى خدمته ويطيرون آلاف الأميال لإحضار عروش

أعدائه كى ينبهروا بقدرته فيسلموا، أما محمد بن عبد الله فكان نبيا فقيرا عظيم التواضع رغم أن الله تبارك وتعالى أرسله رحمة للعالمين .. وحين بُعث الرسول برسالته الخاتمه، كانت البشريه تتهيأ لدخول عصر النضج العقلى، فشاءت حكمة المولى أن تكون أول كلمات الرسالة "اقرأ" وشاء الله تعالى أن تكون معجزة الرسالة هى نوعية الفكر الذى تنطوى عليه والمنهج الذى تقيمه، والتشريع الذى تضعه، والحريه التى تحييها، والإنسان الذى تبنيه .. وقدر الكرامة والحرية التى توفرها له، والأمان الذى تقدمه .. واعتبرت الشريعة الإسلامية أن حياة الإنسان نعمة من الله وأى مساس بهذه النعمة هو عدوان على الجنس البشرى كله .. قال تعالى ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ .. وبسبب العدل الذى حمله الاسلام لأتباعه، وللنوع البشرى كله، انتشر الإسلام بسرعة النور .

# الإسراء والمعراج

كان النبى ﷺ يحزن كلما دعا الخلق إلي الله ورفض الناس دعوته ، وكان حزنه النبيل ينبع من شفقته وحنان قلبه على الناس ، وخوفه عليهم من أهوال القيامة والحساب .

يقول الحق : ﴿فلعلك باخع نفسك (قاتل نفسك) على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ .

كان الرسول حزيناً ...

وحين بدا أن الناس قد تخلوا عنه تدخلت السماء لتشريفه وتكريمه وإيناسه... وهكذا جاءت معجزة الإسراء والمعراج ، وهى معجزة لم تأت تأييدا للدعوة ، بقدر ما جاءت تأييداً للنبى وتشريفاً له .

ومعجزة الإسراء غير معجزة المعراج ، وإن وقعتا فى ليلة واحدة ، ووردتا بعد ذلك فى سورتين مختلفتين فى القرآن الكريم .

قال تعالى عن معجزة الإسراء : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ .

وقال تعالى عن معجزة المعراج : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما

يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ .

نتأمل آية الإسراء ...

إنها تبدأ بتنزيه الله {سبحانه الذى أسرى بعبده» والبدء بالتنزيه هنا يتفق مع نسبة المعجزة كلها إلى الله فهى عجب يثير الدهشة ، ولكنها طلاقة المشيئة الإلهية حين تشاء .

وقد تمثلت معجزة الإسراء فى رحيل النبى ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى ، أما معجزة المعراج فقد تمثلت فى صعود النبى ﷺ فى فضاء الأكوان حتى تجاوز السماوات سماء سماء تجاوزها مكانا ماديا ومكانة روحية ، وظل يرتفع ويصعد حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، ووقع هذا كله فى لحظة واحدة قبل أن يبرد فراشه ..



## فى الإسراء

يتساءل الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله تعالى - فى كتابه «فقه السيرة» هل كان إسراء الرسول بالروح وحده أم بالروح والجسد معاً؟ وجمهور العلماء على القول الأخير ... وللدكتور محمد حسين هيكل رأى غريب فقد اعتبره استجماعا ذهنياً ونفسياً لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد .. فى فترة من فترات التألق النفسانى الفذ الذى اختص به بشر نقى جليل مثل محمد ﷺ وفى إبان هذا التألق الذى استعلى به على كل شئ استعرض حقائق الدين والدنيا وشاهد صور الثواب والعقاب .

ويعلق الشيخ الغزالى على هذا بقوله : إن الإسراء حق عند هيكل ولكنه روحى لا مادى ، وقد وقع فى رأى هيكل فى اليقظة لا فى المنام ، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض ، ولكنه حقيقة واقعة على النحو الذى صوره، ثم قال فيه بعدئذ.

وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ماتعرف الطبائع الإنسانية .

ويرى الشيخ محمد الغزالى أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية أخذت تضمحل وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسورا فى عالم الروح لم يعد صعبا فى عالم المادة.

والحقيقة أن قضية إسراء الرسول بجسده وروحه معا يمكن فهمها جيدا لو قرأنا بداية الآية القرآنية عن الإسراء.

إن الحق تعالى يقول ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ..﴾ إن كلمة «سبحان» هنا تتفق مع نسبة المعجزة كلها إلى الله لقد كانت هذه مشيئة الله ، وليس هناك ما يشق على المشيئة الإلهية ، أو يصعب عليها ، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ... وحين تحدث الرسول عن معجزة «الإسراء والمعراج» للناس رفض الكثيرون تصديق ما حدث ..

كانت الرحلة من مكة إلى بيت المقدس تستغرق شهورا فى الذهاب والعودة فكيف ذهب الرسول وعاد فى الليلة نفسها دون أن يبرد فراشه ....

كان العرب يقيسون ما حدث طبقا لإمكانات البشر لا طبقا للمشيئة الإلهية ، وكان هذا أول خطأ فى النظر إلى المعجزة ذاتها...

## آيات فى الإسراء

إذا علمنا أن معجزة الإسراء والمعراج قد استغرقت دقائق فما هى أداة الانتقال التى تستطيع حمل الرسول ﷺ من مكة إلى القدس فى زمن يقل عن الثوانى ...؟

وما هى الأداة التى تستطيع الصعود به فى فضاء الكون وامتداده فى زمن يقل عن الثوانى ؟

حدثتنا السنة المطهرة أن جبريل عليه السلام كان رفيقا للرسول ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج ، وأن البراق كان هو الوسيلة المستخدمة فى الانتقال ، والبراق دابة وصفها الرسول ﷺ بأنها تضع طرفها عند نهاية نظرها ، وهذا وصف يعبر عن السرعة الخاطفة الهائلة .

يرى بعض العلماء أن البراق كلمة مشتقة من البرق (الشيخ محمد الغزالى) والبرق هو الضوء .. وبالتالى فإن أداة لها سرعة الضوء أو أكثر قد استخدمت فى الرحلة .

ونحن نعرف اليوم أن الضوء هو أسرع الكائنات فى عالمنا فشعاع الضوء يسير بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة .. هل استخدمت سرعة الضوء فى الرحلة ؟..

أم استخدمت سرعة أكبر ؟

إن مركبة لها سرعة الضوء تستطيع نقل الرسول ﷺ من مكة إلى القدس فى ثوان ، ولكن مركبة بهذه السرعة لا تستطيع أن تكمل رحلة المعراج وتخترق فضاء الأكوان وعوالم المجرات بأبعادها الهائلة التى يستغرق الضوء فيها ملايين السنين .

نحن أمام سرعة مجهولة وخارقة ... أمام دابة مباركة هى البراق وهى بذاتها آية من آيات الله فقد شاء الله تعالى أن يقع ما وقع وكان ما وقع خرقا لقوانين المكان والزمان ... وهذه هى المعجزة الأولى فى الإسراء .

بعبارة أخرى طوى الله المسافات للرسول ﷺ وأخرجه من نطاق الزمن إلى مجال جديد نجهله .

وهذا يفسر أن الرحلة الهائلة بأحداثها الكبرى قد وقعت فى زمن حدثتنا عنه أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ بأنه زمن لم يكن كافيا ليبرد فراش الرسول فيه ... ظل الفراش دافئا كما لو كان صاحبه قد قام ليشرب ثم عاد إلى نومه .

## آيات الإسراء

كانت آيات الله تعالى فى الإسراء أربعا :

(١) نزول جبريل عليه السلام بغير وحى هو أول آية ، والأصل فى الروح الأمين عليه السلام أنه ينزل إلى الأرض بوحى من السماء ، أو ينزل للتحكم فى أمر ليس فى قدرة البشر التحكم فيه ، كنزوله يوم شق البحر لموسى عليه السلام ولكننا فى هذه المرة نراه ينزل إلى الأرض بأمر من الله تعالى ليصحب عبدا من عباد الله فى رحلة هدفها أن يرى العبد من آيات ربه الكبرى .

(٢) كانت الآية الثانية هى البراق ، وهى أداة تحمل شكل الدابة لكنها تنطوى على قوة هائلة لا تخضع لقوانين المكان أو الزمان ، أداة لها سرعتها الخارقة .

(٣) كانت الآية الثالثة وصول الرسول إلى بيت المقدس ولقاؤه بالأنبياء .. كان الرسول ﷺ حيا ، كان ينتمى لعالم الشهادة، وكان الأنبياء موتى ينتمون لعالم الغيب ، وعلى الرغم من الانفصال القاطع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ،

فإن الله جمع للرسول أنبياءه وصلى بهم الرسول .

تُحدثنا كتب السيرة أن الرسول صلى بالأنبياء كان إماما لهم ، وكان مغزى هذا اللقاء إيناس الأنبياء أن دعوة التوحيد قائمة ومستمرة ، وأن النبى الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام قد بُعث .. أما مغزى إمامة الرسول للأنبياء فكان إثبات وحدة الأديان جميعا وإقامة الحجة على أتباعهم .

(٤) وتجئ الآية الرابعة فى الإسراء .. وهى آية يقود إليها السؤال التالى : لماذا كانت رحلة الرسول إلى بيت المقدس ولم تبدأ من المسجد الحرام مباشرة إلى السماء ؟..

يقول العلماء إن النبوات ظلت دهورا طوالا وهى وقف على بنى إسرائيل فلما أهدر اليهود كرامة الوحى وأسقطوا أحكام السماء تحول عنهم اختيار الله تعالى ، وكان إسراء الرسول إلى بيت المقدس ، وصلاته بالأنبياء إعلاناً عن انتقال القيادة الروحية فى العالم من أمة إلى أمة ومن شعب إلى شعب .. ومن بنى إسرائيل إلى أبناء إسماعيل .. وهذه هى الآية الرابعة فى الإسراء .. الإعلان عن انتقال القيادة الروحية فى العالم من أيدى اليهود إلى أيدى العرب .

## آيات فى المعراج

بعد وصول النبى ﷺ إلى بيت المقدس ، توقف البراق فى مكان الحائط الذى يسميه اليهود اليوم (حائط المبكى) ظلما وعدوانا ، بينما الأصل أنه مكان وقفة البراق .. أو حائط البراق ..

بعد صلاة الرسول بالأنبياء انتهت قصة الإسراء وبدأت معجزات المعراج .. ركب الرسول ﷺ البراق .. مثل سهم من البرق .. ارتفع البراق إلى أعلى .

كانت أول معجزة فى المعراج هى اقتحام فضاء الكون المرئى وعبور السماوات سماء بعد سماء...وظل الرسول يصعد ويرتفع حتى وصل إلى سدرة المنتهى .. وهذه هى الآية الثانية فى المعراج .. الوصول إلى سدرة المنتهى ..

ما هى سدرة المنتهى ؟..

لاحظ غموض الاسم وجلاله .. لاحظ أن سدرة المنتهى اسم مكان قد بدد النص القرآنى بعض غموضه ، وحدثنا أنها مكان تبدأ عنده جنة المأوى ..

قال تعالى : ﴿عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾

بعد هذه الآية الثانية وقعت الآية الثالثة فى المعراج ، كان جبريل عليه السلام يصحب الرسول فى ردائه البشرى الذى يتشكل فيه إذا نزل إلى الأرض فى مهمة بإذن الله .

وهنا فى سدرة المنتهى عاد جبريل إلى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها ، ورأى الرسول حقيقة الجمال والجلال الملائكى مجسداً فى جبريل ، وكانت هذه الآية الثالثة فى المعراج .

قال تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى﴾ . . (نزلة أخرى «أى جبريل») كانت المرة الأولى التى يرى فيها الرسول جبريل على صورته الملائكية فى بداية الدعوة ، حين نزل عليه وهو يتحنث فى غار حراء وهو يحمل أولى آيات من رسالة الإسلام وكتابها الأخير الذى بدأ تنزيله بقوله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . . وفى هذا الجو المهيب الجليل ، وقع حدث أشار إليه الله سبحانه وتعالى بوصفه آية من آيات الله الكبرى .

## الآية الكبرى

كانت ذروة المعراج وصول الرسول ﷺ إلى سدرة المنتهى حيث توجد عندها جنة المأوى ... ثم أذن الله لعبده أن يقترب ويقف فى حضرة الجلال الخالق .

وهكذا وقف محمد بن عبدالله فى حضرة الله .

كانت هذه هى الآية الكبرى التى أشار إليها النص القرآنى بقوله تعالي «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» .

وهذه هى خارقة الخوارق وقمة الآيات فى معجزة الإسراء والمعراج ، وفى هذا الموقف وقع حدثان، حدث أشار إليه القرآن الكريم بغموض مقصود ، وحدث ثان تكلم عنه الرسول ﷺ.

كان الحدث الثانى هو فرض خمس صلوات على المسلمين كل يوم .. أما الحدث الأول فقد أشار إليه النص القرآنى فى سورة النجم بقوله تعالى ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ .

حيرتنى عبارة ﴿إذ يغشى السدرة مايغشى﴾ إن التعبير يشير ويلمح ولا يقول ما حدث .. أيكون الله تبارك وتعالى قد

تجلى على سدرة المنتهى فغشيها ما غشيها من جلال وجمال .

إن موسى لم يحتمل تجلى الله على الجبل فخر صعقا ، والجبل لم يحتمل تجلى الله عليه فانهار دكا ، فهل احتملت سدرة المنتهى وجنة المأوى تجلى الله عليهما ... الله ورسوله أعلم .. لقد سأل موسى ربه الرؤيا ، وسأل إبراهيم الله أن يريه كيف يحيى الموتى ، وتساءل عزير وهو يجلس وسط أطلال قرية خربة كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، ودعا سليمان أن يهبه الله مُلكا لا ينبغى لأحد من بعده ، أما رسول الله ﷺ فلم يسأل الرؤيا ولا تساءل كيف يحيى الله الموتى ، ولا كان يدهشه بعث التراب الذى تطاير ، ولا كان يطمح إلى مُلك لاينبغى لأحد من بعده ..

كان كل همه هو رضا الله وخلاص الإنسان ...

هذا التواضع العبودى رفعه لذروة التشريف فأعطى ما لم يحلم وأجيب لما لم يسأل وأطلعه الله تعالى على ما لم يطلع عليه أحداً من العالمين ....

لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

## الصلاة معراج المؤمن

فى مشيئة الله حكمة عميقة لا تسفر عن وجهها إلا لمن يسمو ويشهد ، من هنا جاء فرض الصلاة فى ليلة المعراج فى سدرة المنتهى عند جنة المأوى .

إن سدرة المنتهى مكان ومقام ، وجنة المأوى مكان مادى ورمز معنوى فى الوقت نفسه .

وسدرة المنتهى هى غاية الغايات فى الكمال ، وهى ثمرة العبودية أما جنة المأوى فهى رضا الله تعالى حين يهب للعباد آية الرضا وثمرته .

لماذا فرضت الصلاة فى سدرة المنتهى؟

ما هى حكمة فرضها فى موقف المعراج؟

هل الصلاة معراج المؤمن؟

هل هى محاولة للصعود إلى الله تعالى؟

هل هى ارتفاع يأخذ شكل سجود الإنسان للجلال الخالق ؟!

الجواب نعم .. الصلاة صلة بالله .. عروج إليه وقرب منه سبحانه وهذا القرب من الله هو قمة مجد العباد .

نعرف أن الله تبارك وتعالى لا يزيد فى مُلكه أن يعبده

العابدون ولا ينقص من مُلكه أن يكفر به الكافرون .

إنما تزيد العبـادة فى ملك الناس أو ينقص الكفـر من مُلكهم فى العالم الآخر .

فرض الله على المسلمين ليلة المعراج خمس صلوات كل يوم وهذا يعنى أن الله تكرم على أتباع النبى العربى الأخير بمجد الوقـوف فى حـضـرته خـمس مـرات فى اليـوم .. يسـألونه ويستـغفـرونه ، والله كـريم يحب أن يسأله خلقه ، وهو رحيم يعفو عن خطايا عباده ، وهو المسئول الوحيد القادر على تلبية الدعاء وإجابة السائلين .

إن خـالق الدنيـا والآخـرة ، والمهـيـمن على الكون الخـفى والكون المرئى ، إن رب العالمين سبحانه بكل شئونه ، وكل يوم هو فى شأن يسمح لهذه الخليقة الإنسانية رغم أصلها الترابى أن تكلمه وتدعوه وتسأله خمس مرات فى اليوم وتأنس برحمته خمس مرات فى اليوم ، يكفى أن يقيم الإنسان الصلاة ويدخل فيها حتى يمثل فى حضرة الله تعالى .



# الهجرة الشريفة

حين حوصر المسلمون فى مكة، وبدا واضحا ان الدعوة مهددة بهذا الحصار، نصح الرسول ﷺ المسلمين بأن يفروا بدينهم إلى الحبشة وخرجت موجتان إلى الحبشة ...بعد هذه الهجرة بدا المسلمون يغيرون اتجاههم من الحبشة إلى يثرب، ويرى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى أن هناك فرقا جوهريا بين هجرتي الحبشة وهجرة النبى ﷺ إلى يثرب .

لم تهتم قريش بهجرتى الحبشة، وربما أثارت إشفاق بعض الشخصيات البارزة فى قريش مثل عمر بن الخطاب .. أما الهجرة إلى يثرب فقد أزعجت قريش وأثارت غضبها حين رأت المسلمين يخرجون إلى قوة يتجمعون بها، ولم يخرجوا فارين بدينهم كما فعلوا فى الحبشه مرتين .

كان جوهر الهجرة هو كسر الحصار على المسلمين والخروج إلى يثرب حيث يتجمعون ويبدءون حياة جديدة لهم فيها قوة تدفع عنهم الأذى وتعطيهم القدرة على الحياة فى ظل مبادىء دينهم وقيمه .. قال تعالى : و﴿ نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ ..

كانت هذه الآيات بشارة للمؤمنين .

هل كان خروج الرسول ﷺ تدبيرا من الرسول، أم وحيا من الله .. لقد رأى الرسول فى منامه، ورؤيا الأنبياء حق، رأى أنه يخرج إلى يثرب .

ويذكر ابن إسحق فى سيرة النبى ﷺ أن الإذن بالهجرة أو الأمر بها جاء فى قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾

أذن الرسول للمؤمنين بالهجرة وقال لهم إن الله تعالى قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها وخرج المسلمون آحادا وجماعات .



## فى الهجرة

يقول العالم الجليل الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه خاتم النبيين : اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش فظن كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هى سبب الهجرة، وأن الهجرة كانت أمرا مسببا لها، ولكن الهجرة كانت أمرا مقررا، وتنظيما محكما .. يقول الله تبارك وتعالى :

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ما هو تفصيل هذه الواقعة ؟.. روى ابن اسحاق فى سيرته أن كبار المشركين فى مكة اجتمعوا فى دار الندوة، وهى دار قصى بن كلاب، وهى دار أعدت للقرارات المصيرية، فلا يقضون أمرا ذا بال إلا فيها .

كان الهدف من الاجتماع هو التشاور فى أمر محمد الذى بات خطرا يهدد المشركين، وكان مشركو مكة قد أدركوا أن النبى يستعد للهجرة منذ البيعة الأولى عندما التقى بالأوس

والخزرج، ثم كانت البيعة الثانية وهى بيعة الإيواء والنصرة دليلا على أنه اعتزم الهجرة، وقد صار له أتباع بايعوه على السمع والطاعة، فمن يضمن لمشركى مكة ألا ينقلب عليهم محمد وأصحابه .. من هنا تحركت قريش واجتمع رؤساؤها فى دار الندوة .

كان الموضوع الأول والأخير فى أجندة الاجتماع هو التشاور فى أمر محمد بن عبد الله وبدأت المشاورات .. قال قائل منهم ضعوه فى الحديد واسجنوه حتى يموت، ورفض هذا الاقتراح.قال أحدهم ننفيه من الأرض ونخرجه من مكة، ورفض هذا الاقتراح.وقال أبو جهل عمرو بن هشام إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا ما هو يا أبا الحكم ؟!.. قال نأخذ من كل قبيلة فتى شابا ونعطى كل واحد منهم سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، فنستريح منه ويتفرق دمه فى القبائل .. واستقر الرأى على هذا الاقتراح الاخير .

## على هامش الهجرة

لو استخدمنا مصطلحات العصر الحديث فسوف نقول إن الهجرة كانت على المستوى التكتيكى تعنى كسر الحصار الذى أقيم فى مكة حول الإسلام .. أما على المستوى الاستراتيجى فكانت الهجرة تعنى بناء دولة الإسلام فى المدينة .. وخروج الإسلام من الحصار إلى الانتشار .. من هنا حرص سادة مكة على التآمر ضد الرسول وإعداد خطة لقتله واستقروا على ذلك.وأخبر الله تعالى نبيه بما دبروه، وأمره ألا ينام الليلة على فراشه .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى فى كتابه خاتم النبيين إن الأمر بالهجرة جاء فى ذلك الوقت .. ونزل قوله تعالى: ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ .. فسرها قتادة بأن دخول الصدق كان بدخول المدينة، والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة، وهى أحب أرض الله تعالى إليه،

كان الخروج والدخول تثبيتا لدعوة الحق ونصرته وإعزازه .. ووقف شباب قريش وبأيديهم السيوف وأحاطوا ببيت الرسول فى انتظار خروجه.

وخرج الرسول وهو يقرأ سورة يس حتى وصل إلى قوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيانهم فهم لا يبصرون ﴾ .. وأعمى الله أبصارهم عن الرسول فلم يروه وهو يخرج ، ولم يروه وهو يحثو التراب ويضعه على رءوسهم.وانصرف النبى ﷺ إلى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق .



## الخروج العظيم

انتظر المشركون الذين كانوا يريدون قتل الرسول ﷺ أن يخرج الرسول إليهم، ومر عليهم واحد رأى الرسول قد خرج .. قال لهم ماذا تنتظرون ها هنا .. قالوا محمدا .. قال خيبكم الله، قد خرج محمد عليكم وما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على راسه ترابا، ألا ترون ما بكم، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذى أتاهم فجعلوا يتطلعون فيرون عليا فى الفراش متسجيا ببردة الرسول فيقولون إن هذا لمحمد نائم وعليه بردة، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على من الفراش، فقالوا لقد صدقنا الذى حدثنا أما رسول الله ﷺ فقد نظر إلى البيت الحرام قبل أن يخرج وقال : إنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت (وإخراجهم كان بالأذى ومنع الدعوة).

ودعا الرسول دعاء ضارعا ختمه بقوله أعوذ بوجهك الكريم

الذى أشرقت له السموات والأرض وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجاءة نقمتك ، وتحول عافيتك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .. بهذا الدعاء الضارع ابتدأ رسول الله ﷺ رحلته المباركة التى كانت تحولا تاريخيا أفادت منه الإنسانيه كلها .

يرى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى أن الهجرة كانت هى النصر الأول، بل هى أعظم النصر، لأن النصر الذى جاء من بعدها كان ثمرة لها فهى باب للفتح، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الأول .. قال تعالى :

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيم﴾

## فى الغار

اكتشف عتاة المشركين أن رسول الله ﷺ قد خرج، وأن الذى نام مكانه هو على بن أبى طالب، وأنهم ترصدوا عليا وهم يحسبون أنهم يترصدون النبى ليقتلوه، وحاولوا أن يعرفوا من على أين ذهب النبى فلم يجدوا عنده ما يطلبون، فأخذوا يتقصون .. وأعلنت قريش أن من يأتى به حيا أو ميتا فله مائة ناقة .

فى الوقت نفسه .. الرسول وصاحبه أبو بكر يسيران نحو غار ثور، كان أبو بكر يسير أحيانا أمام الرسول، وأحيانا أخرى خلفه، وسأله النبى : لماذا ؟..

وكان جواب أبى بكر أنه يتصور أن الخطر قد يجيىء إما من الأمام أو من الخلف .. ولهذا يتصدى له مرة من الأمام ومرة أخرى من الخلف .. أخيرا انتهيا إلى الغار .. قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتى استبرىء .

ودخل أبو بكر الغار وتأكد أنه آمن وليس فيه ما يخيف ..

بعدها قال للرسول انزل يا رسول الله .. ودخل الرسول الغار .

مكث الرسول وصاحبه فى الغار ثلاث ليال .. فى الوقت نفسه مضت قريش تبحث عن الرسول لقتله .. واقتفوا آثاره حتى وصلوا إلى غار ثور.. ونظر فرسان قريش إلى الغار .

كانت هناك عنكبوت نسجت عليه نسيجها الذى يبدو قديما ، وكانت هناك حمامتان عششتا على بابه .. وأمام هذه الآية الحسية من خوارق العادات قال فرسان قريش

- لم يدخل هنا أحد.. ثم انصرفوا يائسين.

ولو أنهم نظروا تحت أقدامهم لرأوا الرسول وصاحبه، ولكن الله تعالى صرف أنظارهم عنهما.

بعد ثلاث ليال فى غار ثور ظهر دليلهما فى الرحلة عبد الله بن أريقط، وكان يومئذ مشركا ولكنه اختير لكفاءته .

ومضى الركب المبارك نحو المدينة .



## الطريق إلى المدينة

لم تكن رحلة الرسول إلى المدينة سهلة، لأن طريق الصحراء ليس سهلا في ذاته، بل هو طريق وعر تجتاز فيه الرماد والوهاد والآكام، وقد اختار دليله طريق الساحل، وهو أشد الطرق وعورة، وكان هدفه من ذلك ألا تتبعهم قريش إذا ساروا في الطريق الذى ألفوا السير فيه .

كانت قريش قد جعلت لمن يأتى بالرسول مائة ناقة، وهذا العدد يغرى الكثيرين من الفقراء وغير الفقراء على التطلع للحصول على هذه الثروة في صحراء فقيرة .. وكان من بين الطامعين في هذه الثروة رجل اسمه سراقة بن مالك كان يجلس في بيته حين دخل عليه واحد من قومه، وحكى له أنه شاهد ثلاثة يسيرون جوار الساحل .. ورجح سراقة أن يكون هذا هو ركب الرسول، ومعه أبو بكر ومعهما دليلهما..ونهض سراقة دون أن يقول شيئا لأحد، ولبس درعه وركب فرسه وانطلق إلى طريق الساحل وهو يحلم بالثروة التى ستهبط عليه حين يأتى

بالرسول حيا أو ميتا .

أطلق سراقة العنان لفرسه، ولكنه فوجىء حين اقترب الفرس من محمد وصاحبه أن الفرس ينكفىء على وجهه ويسقط فارسه أرضا .. لم ييأس سراقة وعاد يمتطى فرسه وينطلق، ولكن الحصان ألقاه عن ظهره للمرة الثانية دون سبب واضح .. وعاد سراقة يحاول للمرة الثالثة، ولكن الحصان غاصت رجلاه الأماميتان فى الأرض وألقى فارسه عن ظهره للمرة الثالثة .. وأدرك سراقة أنه أمام خارقة فقال للرسول وصاحبه أنظرونى أكلمكم، فوالله لا يأتيكم منى شىء تكرهونه، سأله الرسول ماذا تريد منا ؟

قال سراقه اكتب لى كتابا يكون بينى وبينك، وكتب له الرسول ما أراد ، وظل سراقة يحتفظ بهذا الكتاب حتى يوم فتح مكة، فأعطاه للرسول، وهو يذكره بما كان منه، وقال الرسول هذا يوم وفاء .



## معجزات أخرى

كان خروج الرسول من بيته فى مكة وحول البيت شباب قريش وفى أيديهم السيوف ونجاة الرسول معجزة، فقد وضع الله على بصرهم غشاوة فلم يروه. ويضاف لهذه المعجزة أو الخارقة نسج العنكبوت فى الغار وتعشيش الحمام عليه، ويضاف لهذا غوص قوائم فرس سراقة وعثرته عدة مرات .. ويرى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى أن كل هذه خوارق حسية لا تقل عن معجزات الأنبياء الحسية، ولكن النبى ﷺ لم يتحد قريشا بها، ولم يتحد الوجود الإنسانى بها، بل تحداه بالقرآن ، المعجزة الكبرى .. أيضا صادف الرسول خوارق أخرى خلال رحلته، منها الخارق الذى بدا فى المرور على أم معبد .. وقد روى البيهقى القصة الكاملة .. قال : حين هاجر الرسول من مكة إلى المدينة مر على خيمتين متواضعتين لأم معبد الخزاعية .. كانت المرأة تجلس بفناء الخيمتين، وكان مع الرسول صاحبه أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر

ودليلهما فى الرحلة عبد الله بن أريقط .

كانوا أربعة رجال قد أجهدهم الجوع والعطش.سألوها هل عندها لحم أو لبن (يشترونه منها ) فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك.وقالت : لو كان عندنا شيء ما احتجتم إلى الطلب .. نحن فى سنة جدب.ونظر الرسول ﷺ فرأى شاة فى كسر خيمتها .. قال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟..

قالت : هى شاة خلفها الجهد عن الغنم، سألها هل بها من لبن ؟.. قالت : هى أجهد من ذلك، قال الرسول : هل تأذنين لى أن أحلبها، قالت: إن كان بها حلب فاحلبها .. فدعا الرسول بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله تعالى ودعا بإناء لها فحلبها وملأ الإناء وسقى أم معبد وأصحابه وترك الإناء مليئا باللبن، ونهض يكمل رحلته، وجاء زوج المرأة أبو معبد ففوجيء بوجود اللبن وسألها من أين ؟.. فحدثته ووصفت له الرسول، قال: هذا هو النبى الذى تريد قريش رأسه، ولو صادفته لالتمست صحبته .

## الوصول إلى المدينة

ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينه .. كما يحدثنا الشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه فقه السيرة

فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد، ويتشوفون إلى مقدمه بلهفه، فإذا اشتد الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد، وملء جوانحهم الترقب والقلق والرجاء .

وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة، برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بهجرة الرسول ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعته ويودون رؤيته.

فلما حميت الظهيرة وكادوا ييأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم، صعد رجل من اليهود على تل مرتفع فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب، وتدنو بهم الرواحل رويدا رويدا إلى المدينة .. إلى وطن الإسلام الجديد .

وصرخ اليهودى بأعلى صوته:يا بنى قيلة .. هذا صاحبكم قد جاء .. هذا جدكم الذى تنتظرون، وأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم، وارتفع صوت التكبير يرج أنحاء المدينة، ولبست يثرب حلة العيد.

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين راكبا، ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشئ كفرحهم به، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء .

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن قد رأى الرسول ﷺ من قبل، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبى بكر لأول وهلة حتى أن النساء كن يسألن أيهم هو ؟..

وتغير اسم المدينة من يثرب إلى المدينة المنورة .. نورها الإسلام ونورها الرسول ﷺ .



# وفاة النبي ﷺ

كان اليوم مهيباً وجيش المسلمين ينحدر من جبال مكة كسيل لا يقف فى طريقه شئ ..

إن عشرة آلاف رجل مؤمن مدججين بالسلاح ينحدرون على مكة .. الكتائب تمر .. كتيبة بعد كتيبة .. وفرقة بعد فرقة .. حملة السهام والسيوف والفرسان والجنود ثم يمر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار .. لا شئ يظهر منهم غير حدقات العيون وباقى أجسادهم مغطاة بالدروع والسلاح .

ولمعت سيوف الحق وهى تستند إلى القوة ..

ووسط هذا الجيش العظيم الذى فتح مكة .. كان النبى ﷺ يركب ناقته وقد أحنى رأسه خشوعاً لله حتى كادت تمس ظهر البعير الذى يركبه .. يومها تم تطهير الكعبة من الأصنام .

وارتفعت فى المسجد الحرام كلمة الله تبارك وتعالى ..

وعاد للبيت القديم مجده حين كان بيتا يُعبد فيه الله وحده.

●●●

استيقظ النبى فوجد نفسه وحيدا فى الغرفة .

كان جسده يلتهب من الحمى والألم .. ونادى عائشة وطلب منها أن تأتيه بماء يتبرد به .. ماء كثير .

وراحت أمهات المؤمنين نساء النبى يصبن الماء على رسول الله حتى اكتفى وخفت الحمى قليلا عن جسده .

راح ذهن النبى يفكر .. ما الذى نسى أن يقوله للناس.

لقد بلغهم كل شئ وعلمهم كل شئ وترك فيهم كتابا لا يضل بعده من يتمسك به .. ونعس الرسول قليلا .. رأى نفسه فى حجة الوداع ..

إن هاتفا خفيا يشعره صلى الله عليه وسلم أن مقامه فى الدنيا يوشك على النهاية ..

وهو يستدعى معاذ بن جبل .. ويعلمه كيف يدعو الناس إلى الله ، وكيف يعرفهم دينهم ، ثم يخرج معه إلى خارج المدينة يوصيه .. ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشى جوار ناقته يوصيه ويحدثه ويعلمه .

إن أولى الناس بى .. المتقون .. من كانوا وحيث كانوا.

كان النبى رحمة لكل الناس ، وصورة عليا من صور الإخاء والتواضع .

كان حاكما على المسلمين بالقرآن .. ولكنه يرفض أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة .. كان يقول لأصحابه : إنما أنا عبد الله .. فقولوا عبد الله ورسوله .

وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا احتراما له فأمرهم ألا يقوموا له .. وكان إذا خرج للقاء أصحابه وتلاميذه جلس معهم فى آخر مكان يجده .. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب أطفالهم ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الكبير والصغير ، ويزور المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من يتلقاه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، فإذا جاءه أحد وهو يصلى خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ من قضاء حوائج الناس عاد إلى صلاته ، وكان أكثر الناس تبسما أطيبهم نفسا .. وكان يخدم نفسه إذا دخل بيته ويخدم أهله .. فهو يغسل ثوبه ويرتقه ، ويحلب شاته ويصلح نعله ويسقى البعير ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين والمحزون .

وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يترك أحفاده يلاعبونه أثناء صلاته .. ولم تنتشر رحمته على الإنسان وحده وإنما جاوزتها إلى الحيوان والطيور والأشجار .

كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لقطة تلتمس عنده ملجأ من البرد .. وكان يطعم الحيوانات بيديه ويسقيها ويرحمها ويقوم

بنفســه على تمريض كلب مــريض ، وكــان يمسح لجـواده بكم قميصه .. ولم يكن يقطع شجرة .. وأمر جيوش المسلمين وهى تفتح الأرض وتنشر عدالة الإسلام ألا يقاتلوا طفلا أو شيخا أو امرأة أو صبيا ، ولا يقطعوا شجرة ولا يهدموا بيتا .

وكان ينفق من ماله على الآخرين ..

يطعم الأطفال والفقراء ويبيت هو صائما ..

وكان لا يدخر شيئا لغده .. وحين مات وهو فى قمة مجده مات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى مقابل طعام اشتراه لأهل بيته ..

فتح النبى عينيه ..

وجد جبريل يقف عند رأسه .

قال جبريل :

الصــلاة والســـلام عليك يا رســول الله .. إن ملك الموت يستأذن عليك .. لم يستأذن على بشر من قبلك ولن يستأذن على بشـر من بعـدك .. إن الله يخيــرك بين الملك والخلود فى الدنيا وبين لقاء وجهه ..

قال محمد : بل الرفيق الأعلى ..

وأفسح جبريل مكانه لملك الموت ..

ودخل ملك الموت حجـرة النبى وهو يضع أجنحتـه ويصلى عليه ..



# الوقوع فى هوى الكعبة

فى الأيام القديمة الطيبة ، كان أجدادنا يقاسون أهوالاً فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة . .

إنهم يركبون الدواب إلى شاطئ البحر .. ثم يركبون البحر إلى شاطئ الصحراء .. ثم يركبون الجمال ويقاسون من اهتزازها المستمر ، وهم ينامون أيامًا فى الطريق ، ويتعرضون للحر والعطش والبرد والجوع والخوف .. لكنهم يواجهون هذه المشاق بإحساس عميق بأن الله يكفّر عن الإنسان خطاياه إذا تعذب وقاسى وهو يشق طريقه إليه .. وكلما زاد تعب المؤمن زاد الله فى ثوابه .

لكننا سوف نجد طريقًا آخر فلا تقلق .

صحيح أن القرن العشرين يتميز بزوال المسافات بين الدول ، لكن إجراءات السفر والجوازات والمصالح الحكومية والبنوك وتأشيرات الدخول وتأشيرات الخروج عوضت النقص فى الزمن وأطاله كما كان ، وزادت من ثواب المؤمن بما تقدمه له من متاعب جمة وعقبات كثيرة ومنغصات غفيرة .

الثواب باق كما هو ، بل لعله يزيد ، فلا تبتئس .

انتهى الأمر وقررت بينك وبين نفسك أن تعتمر أو تحج .

ستتدرب هنا على الجرى بين الصفا والمروة تدريبًا كافيًا فلا تخف .. أمامك أسبوع من السعى بين هذا المكتب وذاك ، ومن توقيع أوراق هنا والتصديق عليها هناك .. فى البداية سوف تلتقى بقرعة و يانصيب قد يرسو فيه عليك الحظ وقد يخطئك .. وفى النهاية ستمد أيديك للحقن الصحية والواقية .. انتهى التكفير عن نصف ذنوبك بانتهاء آخر الإجراءات .

لم تسأل نفسك لماذا تريد أن تسافر إلى العمرة .. تختلف أسباب السفر ودوافعه باختلاف الناس .. سنعثر على عديد من الأسباب بقدر عدد المسافرين .

ورد فى الأثر الشريف أن زمانًا يجئ على الناس فيخرج أغنياؤهم للسياحة وفقراؤهم للتجارة ، وعلماءهم للسمعة ، وقلة منهم هى التى تخرج وداخلها هذا الهوى الغامض نحو الكعبة .

إلى العمرة إذن فى محاولة لاكتشاف هذا اليقين الكامن وراء ما ترمز إليه حجارة الكعبة ، وهذا الحنين الجارف إلى زيارة قبر الرسول ﷺ .

تتشابه قوانين العبادة وقوانين الحب فى كثير من الطقوس

الخارجية والمعانى الباطنية .. يتشابهان مثلا فى سلسلة الأوامر والنواهى التى تنفر من الأسئلة وتطلب الطاعة فحسب، ولا تخضع لبداهة المنطق المعتاد للأشياء .. أنت تصلى الظهر أربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات .. لا تعرف السر فى عدد الركعات ولماذا يزيد هنا وينقص هناك .. أيضًا لا تسأل عن السر فى ذلك . وكذلك الحب يبدأ بسلسلة من الأوامر لا تعرف حكمتها .. وعلى قدر طاعتك نعرف مقدار حبك .

أول أمر يصدر إليك قبل التوجه إلى العمرة أن تنوى العمرة .. (اللهم إنى نويت العمرة فيسرها لى وتقبلها منى) بعد ذلك عليك أن ترتدى ثياب الإحرام .

إزاران يلف المرء أحدهما حول وسطه والثانى حول كتفه اليسرى .. وأى بشكيرين جديدين لونهما أبيض يصلحان لذلك .. لا يرتدى المحرم شيئًا مخيطًا .

يحس المرء وهو يسير بهذا الرداء أنه عار للمرة الأولى فى حياته . عرى من نوع جديد وغريب وغير مألوف . كأنك عار من الداخل . كأن روحك عارية . يولد المرء عارياً ويستقبل الحياة عاريًا ثم يدركه الناس ويلفونه بالأغطية ويعلمونه ارتداء الملابس وارتداء الأقنعة وإخفاء الحقائق ويفسدون فطرته .

لماذا يأمرنا الله أن نرتدى ثيابًا ليس فيها خيط واحد يشبك رداء برداء . إن هذا يشبه ما يرتديه الأطفال حين يولدون . هل تعنى العمرة ارتداد المرء إلى الطفولة .. إلى الجزء البرىء الذى لم يخدش بعد فى الطفولة .. ربما يكون ذلك هو المعنى وربما يكون هناك سبب آخر لتبديل الثياب .. سبب يكمن فى الحب . نحن نخلع نفوسنا القديمة حين نحب ونرتدى ثوب الصفاء ذاته . وقبل هبوط آدم من الجنة إلى الأرض كان يعيش عاريًا دون أن يدرك أو ينتبه إلى عريه . ثم ارتكب خطيئته وأكل من الشجرة المحرمة . ساعتها أدرك أنه عار وبدأ يحس بالخجل لذلك ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ .. وبدأ يرتديان الملابس للمرة الأولى فى حياتهما .. كانت ملابس بغير خيط واحد . لم يكن هناك من يخيط الملابس .

هل تعنى ملابس الإحرام العودة إلى هذا الزمن القديم الطيب الذى كانت الخطيئة فيه واحدة .. والتوبة مهيأة .. ورحمة الله تنتظر بالعفو والسماح ؟..

لا أعرف ، كل ما أعرفه أن تبديل الثياب يعنى فى القصص الدينى تبديل الشخصية ، والناس لا ترتدى ثيابًا غير مخيطة إلا وهى تولد ، أو وهى تموت ، أو وهى تحج أو تعتمر

.. وحين كانت فى الجنة قبل الهبوط إلى الأرض ، هل يقصد الله تعالى بهذه الملابس أن يعلم المسلمين درسًا فى المساواة .. لست أعرف السر فى ملابس الإحرام كما أجهل السر فى كون ركعتى الفجر اثنتين والمغرب ثلاثًا . غير أننى لمعرفة سابقة بقوانين الهوى أدرك أن السؤال فى لحظات الحب قد يكون أحيانًا سوء أدب .. والأفضل الطاعة .

ستخرج من القاهرة بنفسية غريبة .. سيخيل لك أنك ذاهب فى رحلة حب ، ربما لم تكن تصلى بانتظام ، وربما يكون صومك تقليداً ، غير أنك تدرك فى نهاية الأمر أن الباب الذى يفتحه الله بينه وبين عباده هو الباب الوحيد الذى يستحق الالتفات ، وهو الباب الوحيد الذى يتسم بالكرم فلا يوصد أمام الإنسان مهما يرتكب من ذنوب .

وستحس بالفرق بين هذه الرحلة وأى رحلة أخرى قمت بها قبل ذلك .. تحس وأنت تسافر إلى أمريكا أو أوروبا مثلاً بالفرح أو الخوف أو القلق .

تختلف الرحلة إلى الكعبة عن أى رحلة أخرى . إنك هنا لا تحس بغير شعور واحد . الأمان المطلق .. والهوى . أنت فى

الطريق إلى رحلة حب .. وهو حب مضبب .. فأنت تعرف انك لن تلتقى بوجه معين .. ثمة دائرة من التجريد .. دائرة لا تمتلئ بشىء ، وتمتلئ فى نفس الوقت بآلاف المعانى الغامضة الساحرة التى تجعلك تقف على مشارف البكاء .

وجدت ما أبحث عنه الآن فقط ، هل تعرف بم تحس وأنت ذاهب إلى الكعبة .

إنك تحس انك ذاهب ، لأن أحداً قد دعاك ، وينبغى أن تذهب .

هكذا ببساطة .

لا تذكر شكل وجه الداعى .. لا تعى أذناك نبرة صوته .. غير انك واثق أنه دعاك وينبغى أن تذهب .

إن خليل الله .. وأبا الأنبياء .. إبراهيم عليه السلام ، وقف يومًا يدعو جوار الكعبة ، فقال : ﴿ ربنا واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ .. استخدم النبى تعبيراً مشتقا من الهوى .. والهوى فى اللغة انحدار لا يقاوم نحو شىء .. ولو بحثت فى عيون العجائز والشبان وهم يتجهون للكعبة ، فلن تجد تفسيراً غير دعوة إبراهيم عليه السلام .. وإلا فكيف

تفسر بكاء هذه الأم العجوز التى تحلم أن تزور الكعبة قبل أن تموت ، وكيف تفسر فى نفس الوقت قلق هذا الشاب ورغبته فى زيارة الكعبة قبل أن يكبر .

إن دموع المحبين وقلقهم علامة قديمة من علامات الحب .. وهوى الأفئدة لا يخضع لمنطق البشر أو حسابه . وكذلك يذهب الناس إلى الكعبة ، تلبية لدعوة أبيهم إبراهيم ، التى استجابها الله سبحانه ، وهى فكرة فى عقله ، وقبل أن تولد على شفتيه كدعاء .

يعرف المسلمون أن هذه الدعوة غيب .. لم يسمعها أحد منا لكن الله حدثنا عنها ، وهذا بالنسبة لنا يقين أفضل من مجرد السماع ومعاينة الحواس .. فالحواس قد تكذب .. وصدق الله العظيم .

ليس هناك تفسيرا لنزوع الملايين نحو الكعبة غير هذه الدعوة .. هى الأصل فى الهوى الغامض الذى يملأ القلوب حنينًا لزيارة مكان لم نره من قبل . والأصل فى الحنين أن يجئ بعد أن ترى الشىء وتعاينه وتميل إليه وتقع فى حبه ثم يبدأ الحنين نحوه .. إما أن تحن لشىء لم تره بعد .. أما أن تعشق وجهًا بلا ملامح .. أما أن تقع فى هوى مكان لم تزره بعد .

فأى غرابة ؟!!..

الطائرة تتهيأ للإقلاع .. المطار ساكن .. والناس تتجه بملابسها البيضاء نحو الطائرة .. بدأت التلبية فى السيارات التى تتجه نحو الطائرة .

(لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شرك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) .

ستحس فى البداية بشىء من الدهشة والخجل وأنت ترفع صوتك هكذا وتلبى كأنك تسير وسط مظاهرة صاخبة .. غير انك تنسى كل شىء وتنهمك فى التلبية .

تساءلت بينى وبين نفسى .. فى اللحظات التى كنت أفلت فيها من تأثير هذه الجماعة : لماذا نزعق هكذا كأننا فى مظاهرة ؟! .. ثم أدركت أن المطلوب أن يبدو هذا الوفد فى شكل مظاهرة ، تعلن بصوتها العالى عن احترامها لشعائر الله وتوجهها إلى زيارة بيته .

إن معظم عبادات الإسلام تتم فى السر .. تتم بين المرء وربه .. التسبيح والصوم والصدقة ، عبادات يكره الإعلان فيها .. غير أن هناك عبادات ينبغى الإعلان عنها بتبديل الثياب ورفع الصوت بالتلبية .

أليس الشأن كذلك فى الحب ، يبدأ أسراراً مهموسة ، ثم يجئ الوقت الذى يضيع فيه لو لم نعلن عنه إعلانًا يعرفه البعيد والقريب . ووسط الجزء اليابس من سطح الأرض . تعيش مع الإسلام آلاف العقائد والمذاهب والنظريات التى تعلن عن نفسها وتشرع سيوفها وألسنتها وكتبها بالدعوة لنفسها .. ومن حق الإسلام أن يظهر بعض جوانبه فى الأرض كى يكون هناك شىء أبيض وسط هذا السواد العظيم .

عاد سيف الإسلام إلى غمده من زمان بعيد ، فأى بأس أن يعلن أتباعه عن حبهم الشفوى بهذه التلبية ؟!..

ستستمر التلبية طوال تحليق الطائر ة .. لعلك ركبت الطائرة قبل ذلك عشرات المرات ، ولعلك اعتدت أن تسافر بها دائمًا .. غير أن إحساسك بها يختلف هذه المرة .. يجرى ذهنك لهذا الطائر المعدنى الذى يطير بك على ارتفاع ٣٥ ألف قدم .. وتحس أنك تولد من جديد وأنت تشهد كل عمليات الميلاد التى تقع تحت سمعك وبصرك .

تحت الطائرة مباشرة ، يمتد بساط من السحب الذى يجرى عكس اتجاه الطائرة . . كانت هذه السحب منذ أسبوعين اثنين

أمواجًا فى البحر المالح .. ثم وقعت فى هوى الشمس فصعدت إليها .. تخلت عن الملح وولدت فى صورة جديدة بعد أن أحبت وتظل هذه الأبخرة مستسلمة لنزوعها القوى للشمس .. تظل تصعد فى الجو ، حتى تلتقى ببرودة الهواء فتولد السحب ، ولا تكاد السحب تولد وتتجمع معًا لتستدفئ ، حتى تخضع لناموس الرياح فتتحرك ، تتحرك إلى أين ؟.. لا أحد يدرى .

خالقها وحده هو الذى يعلم .. ربما عادت إلى البحر تحكى عما شاهدته فى السماء، وربما اتجهت لأرض ميتة لتعيد إليها الحياة والخضرة .

ستنظر لهذه الآيات وتحس بالضآلة .. وتصل إليك رسالة الرياح والسحب المسخرة بين الأرض والسماء .. وتصل إليك رسالة القدرة المعجزة فتحس أنك معلق بيد الجلال الخالق .. ويزيد حماسك للتلبية ، وتلاحظ أن الطائرة تنقسم لمجموعات مختلفة ، بعض الملبين يسبق بعضًا ، وليس هناك انسجام كلى بينهم ، وتتخيل لو كانت الطائرة كلها تلبى معًا .. أى روعة أن يحدث ذلك ، غير أن ما تراه من انقسام الناس إلى مجموعات وشلل . وتشويش بعضهم على بعض يعكس لك

صورة لحال الأمة المسلمة اليوم !!..

يصافح وجهك نسيم جدة .

قديمًا كانت جدة ميناء يستقبل الحجاج والمعتمرين أيامًا كاملة .. كانوا يمكثون فيها لتهيئة مئونة السفر والراحة من ركوب البحر والدواب .. الأفضل ألا يبيت المرء فى جدة .. إنما يهرع بنزوع العاشقين وانعدام صبرهم وغلبة شوقهم إلى مكة .

والأصل فى السفر أن يستحم الإنسان حين يصل لهدفه كى يتخلص من تراب السفر .. غير أن هذا السفر يختلف .. يمتنع على المحرم أن يستحم أو يتعطر أو يقلم أظافره أو يتزين .. إنما يذهب كما هو بتراب السفر إلى مكة .

وكلما أسرع بذهابه ، كان هذا أ فضل .. الطريق بين جدة ومكة ، ثمانون كيلو متراً .

جلست بجوار السائق مستمتعًا بالدفء ، معنا فى السيارة اثنان من الشباب السعودى ، بعد لحظات بدأ أحدهما يسألنى: هل جئت فى طائرة المعتمرين ؟.. هل أنت مصرى ؟.. من أى مكان فى مصر ؟.. هل تعرف شارع كذا ؟.. كنت أجاوب باقتضاب وخشونة ، محاولا صده كى أخلو قليلاً لنفسى .. غير أننى لم أنجح .. إن هذا الشاب درس فى مصر وعاش

فيها ثمانية أعوام ، وهو سعيد لأن رائحة مصر وناسها الطيبين الذين أكرموه تهب عليه .. وهو يستطيع أن يميز المصريين من آلاف الشعوب الأخرى ، وهو يعتقد أنه إذا كان الله قد أمر المسلمين أن يتجهوا إلى الكعبة بالصلاة فعلى المسلمين أن يتجهوا إلى مصر بالحب فيما عدا ذلك . بدأ حديثه يروق لى فالتَفَت إليه .. كان كلامه مشحونًا بالعاطفة وهو يتحدث .. وكان يبذل جهداً واضحًا ليتكلم كالمصريين .. سكت قليلاً ثم عاد يقول لى : إن نصف الدماء التى بنت الكعبة دماء مصرية .. إن السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام مصرية ، أهديت لزوجها أبى الأنبياء ثم تزوجها وأنجب منها إسماعيل .. كان إسماعيل عليه السلام مصريًا من جهة الأم .. وأنتم المصريون مشهورون بالبناء من قديم الزمان .. حضارتكم هوايتها البناء والتشييد .. استمعت إلى حديثه وأحسسن أننى أريد أن أبكى .. إن إحساسك بإعزاز الناس لمصر شىء يهز الإنسان ويفجر داخله ينابيع الحب والشفقة فى نفس الوقت .. فى اللحظات التى كان يصمت فيها كنت أتأمل الطريق والصحراء التى تمتد على جانبيه .. أخيراً ظهرت لافتة تقول : (لا يسمح للأجانب بدخول هذه المنطقة ..

الصيد محرم هنا ) .

أخيراً .. هذه هى الأرض المقدسة .. انحنيت على نفسى داخل السيارة ، وانفصلت تمامًا عن كل من فيها ، ودهشت لما أحسه .. الآن أفهم السر فى بكاء أمى وهى تتحدث عن رغبتها فى الحج .. إن شيئًا آسرا وغير مفهوم يستولى على مشاعرك حين تهل عليك رائحة الكعبة .. وتحس فى فمك بمذاق السلام الذى طالما سمعت عنه دون أن تراه .. ومع السلام يخفق قلبك .. وكأنك فى الطريق لتلتقى بهذا الحب القديم الذى ضاعت نفسك حين نسيته ، وعادت إليك وأنت تشد الرحال إليه .. قال رسول الله ﷺ : (لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا ) .. يذكرك هذا الحديث الشريف بأسر المسجد الأقصى وأحزانه .. ضع أحزانك مؤقتًا فى قلبك وتهيأ لدخول مكة .

قل فى قلبك : (اللهم زد مكة تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا واغفر لعبدك الخاطئ) .

أخيراً تدخل البلدة التى يزيدها الله تشريفًا وتعظيمًا . لما تضمه من بيته الحرام، والمفروض أن تهرع إلى المسجد الحرام

وتدخل من باب السلام ، ثم تهرع إلى الكعبة وأنت تلبى بصوت عال . ثم تغوص فى أمواج الطائفين حولها وتصير ذرة بيضاء وسط ذرات بيضاء تدور وتدور وتدور.

للمرة الأولى تدور فى اتجاه الطاعة ، وكم درت يا صديقى آلاف المرات عكس دوران الكون فى اتجاه المعصية.

لا فنادق خالية فى مكة .

ولا سرير واحد ، ولا فندق واحد .

أين أبيت إذن ؟.. أشار الناس إلى المسجد الحرام .. لماذا لا تنام هنا فى المسجد .. أليس هذا ممنوعًا ؟.. هذا بيت الله ، وهو يتسع لكل الناس .. لماذا لا تعتكف فيه ما بقى من شهر رمضان ؟. تصلى أمام الكعبة وتنام فى أى موضع يعجبك ؟. أين أترك حقيبتى .. أتركها فى أى بقعة ولا تخف .. تذكرت قوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ .. تركت الحقيبة جوار أحد أعمدة المسجد وألقيت بصرى للمرة الأولى بتأن وإمعان على الكعبة .

ليس صحيحًا أن الحب ينشأ من النظرة لأولى .. ربما كان أقرب إلى الصحة أن نتحدث عن ميلاد الدهشة من النظرة

الأولى .. وأخطر أنواع الهوى نوع ينسكب فى نفسك قطرة بعد قطرة .. دون أن تحس أو تدرى أو تلاحظ .. ثم تنتبه ذات يوم أو ساعة ، فإذا بك واقع فى الهوى .. ومن هذا النوع هوى الكعبة .

كنت أتصور الكعبة أضخم مما هى عليه فى الواقع .. كنت أتصور أننى سأطير بنظراتى حولها أيامًا .. وأصعد ببصرى فيها ساعات حتى أصل إلى قمتها .. غير أن مجرد النظر إليها ينقلها فى لمحة واحدة ويضعها داخل إنسان العين .. أحرجت مشاعرى هذه السهولة .. وأنا الذى تصورت أن مجرد رؤيتها يحتاج إلى أيام .

رحت أتأمل الكعبة فى صمت .. لم أكن ألبى ساعتها .. نسبت أنه يجب أن ألبى ، وظللت ساكنًا أنظر .. ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين﴾ هذا أول بيت وضع للناس إذن .. أقدم بيت وأول بيت .

فى البداية . لم تكن هناك كعبة .. ولا مسجد ولا شجرة ولا ثمرة ، ولا قطرة ماء .. المكان واد غير ذى زرع .. صحراء قاحلة تمامًا .

وصل إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر وابنهما إسماعيل

.. كان الطفل رضيعًا لم يزل . . ترك النبى الكريم زوجته عند مكان هو الآن أعلى المسجد .. وفى البخارى عن ابن عباس : (جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ، وليس بمكة يومئذ أحد . وليس بها ماء وضعهما هناك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم منطلقًا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء .. فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها .

فقالت له : آ الله أمرك بهذا ؟!..

قال : نعم .

قالت : إذن لا يضيعنا .

ثم رجعت .. فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت .. ثم دعا ربه .

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ، عند بيتك المحرم .. ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

بعدها ، انصرف إبراهيم وترك زوجته وابنه وسط الخلاء الموحش .

لم نزل نتأمل فى الكعبة .. ما أغرب دعوات الأنبياء . . خارج المسجد الحرام تلتقى بكل فواكه الأرض وثمارها .. تجىء إلى مكة المكرمة فى أوانها ، وتجئ فى غير أوانها !!.. وكل شىء هنا ميسر وحاضر .

وكل ما تراه اليوم من شعائر وهوى وطواف ومتعة روحية .. كل ما تراه وتحسه ، ولد من شفاه أبى الأنبياء إبراهيم .. كانت دعوة واستجيبت .. نتركك تدعو الله ، ونطوف نحن بالكعبة .

اللهم إنى أريد طواف بيتك الحرام ، فيسره لى ، وتقبله منى .. هى سبعة أشواط طواف العمرة .. وستبدأ من الحجر الأسود وترفع يديك وتقول : بسم الله ، والله أكبر ، ولله الحمد .. تطوف الآن حول الكعبة .. ومن قبلك طاف الملايين حول الكعبة .. ومن قبلهم طاف إبراهيم وإسماعيل حولها وهما يبنيانها .. ومن قبلهما كان معروفًا ان هذا مكان بيت الله الحرام .. كان معروفًا قبل أن يبنى .. كان هذا مكانه المقدر فى علم الله . . يقول تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئًا ﴾ .. اعتقد بعض العلماء أن البيت كان مبنيًا قبل

إبراهيم الخليل عليه السلام .. وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى : (مكان البيت) ثم أوضح ابن كثير أن المقصود مكانه المعروف لله عز وجل.

تطوف الآن حول الكعبة .

قبل أن تبنى الكعبة ، كان هناك بيت إسماعيل وزوجته الأولى .. جاء شيخ مهيب سمح الطلعة يزورهما ، فوجد الزوجة ولم يجد إسماعيل .. سأل المرأة عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا .. سألها عن عيشهما وحالهما ، فقالت نحن فى ضيق وشدة .. وشكت إليه .. قال الشيخ الجليل : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه .

جاء إسماعيل . فكأنه آنس شيئًا ، فسأل امرأته : هل زارنا أحد ، فحدثته بقصة الشيخ .. قال هذا أبى .. ثم أدرك معنى قوله (يغير عتبة بابه) بأنه يريد به تطليق امرأته .. وسرح إسماعيل زوجته .

تسألنى لأى حكمة . .

كان الله يهيئه لعمل عظيم قادم ..

وكان المفروض أن تكون معه زوجة لا تشكو من شيء ..

زوجة تعين على العمل وتقف بجواره .. وتزوج إسماعيل زوجته الثانية ، فزارها إبراهيم ، وتكرر ما وقع فى القصة الأولى بشكل عكسى .. سألها الشيخ عن حالهما ، فقالت بخير وسعة وأثنت على الله .. وأمرها إبراهيم أن تبلغ إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وفهم إسماعيل الرسالة وعاش مع زوجته ينتظر مجئ أبيه .. ثم جاء الأب يومًا يقول :

- يا إسماعيل ، إن الله أمرنى يومًا بأمر .

قال : فاصنع ما أمرك به ربك .

قال : وتعيننى ؟..

قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتًا .

وأشار إبراهيم إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

أنت تطوف الآن بأقدامك فوق نفس المكان الذى طاف فيه نبيان من أنبياء الله عز وجل .. نفس الطريق الذى قطعته أقدامهما ، تسير فوقه بأقدامك .

تعب النبيان من أجلك . وسط هجير قاس لا يرحم .. ورفعا القواعد من البيت وهما يدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا ، إنك

أنت السميع العليم ﴾ .. هل فهمت الآن حكمة ترك إسماعيل وأمه فى الوادى المجدب .. هل أدركت أنك جئت فى رحلة حب .. إنك تبدأ طوافك دائمًا من الحجر الأسود .

من أشد أسرار الكعبة إثارة للخيال .. هذا الحجر الأسود .. وهم ينادونه بالحجر الأسعد . . تشريفًا له وتكريمًا . ورغم أنه حجر لا يضر ولا ينفع . إلا أنه يرمز لشىء عميق فى الوجدان الإسلامى .. ومن طقوس العمرة ، البدء به فى الطواف . وتحيته وتقبيله .. وقد قبله رسول الله ﷺ .. وقال عمر بن الخطاب وهو يقبله : (والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) .

حول هذا الحجر زحام رهيب . ثمة صراع لا ينقطع من أجل تقبيله .. ويتنازع المسلمون حوله ويتجاذبون وهم يحاولون الوصول إليه .. ولابد أن تستخدم عضلاتك لتصل إليه . ولن تقبله غير قبلة واحدة ، لأن آلاف الأيدى ستمتد وتنتزعك من مكانك وتحاول هى تقبيله .

ربما تقول فى نفسك : سأقبله بعد أن يهدأ عليه الزحام .. بعد الفجر أو فى العصر أو فى المغرب أو فى العشاء أو حين ينام الناس .. وينام الناس والزحام حوله لا يفتر ، والصراع

حوله كما هو .

وكلما تصورت أنت أن رسول الله ﷺ قبله بشفتيه الكريمتين زاد حنينك لتقبيله .. غير أنك تقبله ، وفى قرارة نفسك تعاليم الرسول ، بأن هذا حجر .. وأنه لا يضر ولا ينفع .. هو مجرد رمز .. مثلما تحتفظ بخصلة شعر لمن نحب ونقبلها .. لا نستبدله بها ولا نحبها من دونه .. هل صدقت الآن أنك فى رحلة حب .. أليست القُبلة تتويجًا للحب .. ها أنت تقبل آلاف المعانى التى شهدها هذا الحجر الكريم الأسود .

لقد شاهد هذا الحجر ملايين المصلين الطائفين حول الكعبة . وصكت ذراته ذبذبات صوت آلاف المبتهلين وملايين الداعين .. حدث هذا من زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إلى زمن محمد .. عليه الصلاة والسلام .. كلهم كانوا يبدءون به وهم يكبرون ، وكلهم كانوا ينتهون به وهم يودعون .

هو علامة تقول عندها : (الله أكبر ولله الحمد) .. وحين تقولها تصغر فى نفسك كل معانى القوة فى الأرض . وتتسع كل سلطات الحياة ، ولا يبقى فى وجدانك غير الجبار العظيم المهيمن . رحيم الدنيا ورحمن الآخرة .

قال ابن كثير عن الحجر الأسود .. لما بلغ إبراهيم وإسماعيل القواعد وبنيا الركن .. قال إبراهيم لإسماعيل : يا بنى اطلب لى حجراً حسنًا أضعه هاهنا .. وكان إسماعيل قد تعب ، فنانطلق مجهداً يبحث ، فلما عاد وجد الحجر الأسود عند أبيه .. قال يا أبت من جاءك بهذا .. قال جاء به من لا يدركه التعب مثلك .. جاء به جبريل .. وعادا إلى البناء وهما يدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

لا نعرف ماذا يقول المنكرون للمعجزات اليوم فى هذه القصة .. غير أن هذا لا يهم .. إن عدد الذين يتدافعون حوله لتقبيله طوال الأربع والعشرين ساعة ، هو فى ذاته معجزة تحتاج إلى تفسير ملح أكثر من معجزة إحضاره .. وعلى أى حال فإن خير جبريل عليه السلام علينا قديم ، ولا نعرف كيف نوفيه حقه من الشكر .. هو الذى نزل بالقرآن على قلب نبينا .. وهو الذى أكرم إبراهيم وإسماعيل وقدم إليهما الحجر الأسود .. اللهم بلغ ملكك الكريم عجزنا عن شكره .

انتهى طوافك حول الكعبة .. ستخرج من الدوامة الداعية المستغفرة الباكية التى تطوف حولها وتقف لحظات .. أيدهشك

أن الطواف لم يزل ، رغم خـروجك منه .. من تكون أنت يا سيدى لتؤثر فى بحر الجباه الخاشعة .. أنت لا شىء .. الأفضل لك أن تتضاءل فى نفسك ، وأن تصغر .. قل لنفسك إنك أقل واحد جاء يطوف .. قل لنفسك إنك أكثر الذين جاءوا ذنوبًا .

تضاءل فى نفسك أكثر وأكثر .. فما تقوله حق .. وأنت تعرف أكثر من غيرك أنه حق .. وأنت تقف الآن أمام رب الكعبة .

إن لونًا غريبًا ، وغير مألوف ، من ألوان الخشوع ، يملؤك خشوع غير إنسانى .. ليس هذا إحساسك تجاه من تخاف فى الأرض .. ليس هذا أيضًا إحساسك تجاه من تحبهم فى الأرض .. ثمة شعور جديد تمامًا .. إحساس آخر بأنك تقف فى بيت الله الحرام .. تقف عاريًا من الداخل والخارج .. تذوب حجارة الكعبة فى دموعك .. ولا يبقى غير وجه ربك ذى الجلال والإكرام .. هو الذى يراك من لحظة التكليف إلى ساعة وقوفك أمامه .. وهو يعرف كل ما فعلت .. وهو يطلع على هواجس الضمير وهفوات القلب وآثام العقل وذنوبه .

أنت أمام من يرى كل شىء .. وتفكر أن تهرع إلى الكعبة

وتهشم رأسك فى حجارتها وتستريح .. أو تفكر أن تستدير عائداً وتهرب من البيت الحرام وتغض النظر عن الموضوع كله .. غير أنك لا تفعل من هذا شيئًا .. وإنما تظل واقفًا فى مكانك .. مسمراً بالخوف ، محكومًا بالأمل ، راجيًا عفو خالقك الأعز الأكرم .

إذا بلغ إحساسك بذنوبك ذروة السماء .. هنالك فقط سنتركك تذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (أى عبد يقف فى بيت الله الحرام فيتصور أن ذنوبه أعظم من رحمة الله فقد أثم فى حق ربه . ولم يقدر رحمته حق قدرها) .

وتنبت فى صحراء روحك زهرة واحدة .

زهرة واحدة فى الصحراء .. غير انها تكفى لتعمر صحراء روحك كلها بالخضرة . هل يعيد التاريخ نفسه ، حتى فى نفوس البشر .. لا أحد يعرف . أين كانت أم إسماعيل حين جاءت .. ألم تكن هناك وحدها فى الوادى القاحل المجدب ؟.. نعم كيف احتملت ما احتمله إذن ؟.. أكانت داخل صحراء روحها هى الأخرى زهرة وحيدة ؟.. أنت الآن فى الطريق إلى تأدية الجزء الثانى من شعائر العمرة .. وهو السعى بين الصفا والمروة . . أنت الآن فى قصة هاجر المصرية .. سيدتنا هاجر ،

أم سيدنا إسماعيل عليه السلام .

لا أحد يعرف - غير الله - عمق الأحاسيس المهلكة التى كانت تفتت قلب هاجر وهى تهرول فى الخلاء الموحش ، بحثًا عن المياه . بعد أن تركها زوجها إبراهيم وحيدة مع ابنها فى الصحراء . إنها مصرية ولدت جوار النيل . واعتادت عيناها مرأى الخضرة ، وها هو الماء ينفد منها فى الصحراء . ونهضت تبحث عن ماء . انطلقت تجرى بحثًا عنه .. أوصلتها أقدامها المجهدة إلى الصفا ، وكان أقرب جبل إليها . وخيل إليها أن صراخ الطفل قد سكت فعادت تهبط من الصفا تهرول حتى جاوزت الوادى ووصلت إلى المروة . وقفت عليها ونظرت فلم تر أحداً . وعادت تسعى إلى الصفا سبع مرات وهى تجرى ذهابًا وإيابًا فى نفس الطريق . ألا يدهشك إنها كانت تجرى ذهابًا فى خط مستقيم . فعلت ذلك كى لا يضيع الطفل من نظرها . كانت أحيانًا تهرول وأحيانًا أخرى تتلفت وراءها لترى ابنها وتتسمع .. هل سكت عن البكاء أو هو مستمر فى بكائه ؟.. وكان سكوته يفزعها أكثر من بكائه . ما دام يبكى فهو حى . لا يبكى غير الأحياء . سبع مرات يا ربى وهى تسعى وتهرع

بين الصفا والمروة .. قال رسول الله ﷺ : (فذلك سعى الناس بينهما) . أنت تسعى الآن وتدعو .. كانت هى تبكى وهى تسعى ، حتى جفت دموعها ، وتشقق جلدها . ويئس الطفل من الشراب واندلع صراخه الجريح .

وتذكرت ما قالته لإبراهيم : آ الله أمرك بهذا ؟..

قال : نعم .

قالت : إذن لا يضيعنا .

حين يئس الطفل من الماء وسكت بكاؤه .. ابتعدت حتى لا تراه وهو يموت .. ورفعت صوتها بالبكاء .

هنالك ضرب الملك الكريم بجناحه الصخر ، فانفجرت عين زمزم ، وفار ماؤها البارد ، وقال الملك : لا تخافوا الضيعة .. ها هنا بيت الله .. يبنيه هذا الغلام وأبوه .. والله لا يضيع أهله .

انتهى سعيك بين الصفا والمروة .

الآن تستطيع أن تتخفف من ملابس الإحرام .. يقف أطفال صغار فى أيديهم المقصات .. سيقصون لك خصلة من شعرك ، إيذانًا بانتهاء الإحرام ، وإتمامك لشعائر الله.

تستطيع الآن أن تستريح فى الفندق ، وتستحم وتتعطر ، وترتدى ملابسك العادية .

بالنسبة لى ، لم يكن لدى فندق .. كنت أنزل فى المسجد الحرام ذاته . قلت : أفك الإحرام بالتعطر ، ثم جلست أمام الكعبة منهكًا متعبًا ، ونمت وأنا جالس .. استيقظت قبل صلاة العصر .. الحياة فى بيت الله تمضى بك بغير أن تحس .. الوقت هنا له وجوده ، بدليل الساعة التى تحملها فى يدك ، غير إنه مفقود تمامًا ، لأنه يجرى كمن أصابه من الجنون مس !!

كل أوقات الصفاء هكذا .. كل أوقات السعادة والهوى تجرى من يدك وتترك لك هذا الإحساس المروع بفناء كل شىء على الأرض ، وصيرورته إلى الهلاك .. اليوم أحس أن ما وقع كان حلمًا ، ولولا هذه المجموعة من الحصى الذى أحضرته من المسجد الحرام ، لظننت أن الأمر كان حلمًا .. حلم تلتقى فيه بالله كل يوم خمس مرات وأنت تصلى .

هنا تسفر الصلاة عن عمقها البعيد العظيم .

هنا تتحول الصلاة إلى صلة بالله .

صلة هى لقاء وجد وحب .. حب يتجاوز أسوار الحب إلى العبادة .

كم تتغير مشاعرك وأنت تنظر للكعبة .. فى البداية تحس بالدهشة ثم يغرقك الإحساس بالضآلة .. ثم يفيض عليك صفاء وخشوع غريبان .. ثم يبدأ الهوى فى غزوك .. ويصبح النظر إلى الكعبة عبادة صامتة ، وتروح تمسح بنظراتك كل جدران الكعبة وزواياها . دون أن تفهم السر فيما تفعل .. ومن المدهش ، أن إحساسًا غريبًا بالعطش يندلع فى نفسك كلما نظرت .. وأعظم حب فى الدنيا هو الذى نزداد عطشًا كلما نظرنا فى وجهه .. وهذا ما تحسه تمامًا أمام الكعبة .. إنك لا ترتوى أبداً من النظر أو الطواف .. كلما تأملت هذا القماش الأسود والحجارة القديمة ، وسمعت صوت تنفس إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، زاد إحساسك بالهوى والعطش. هوى المحبين، وعطش العاشقين .

الذين يعتكفون فى المسجد الحرام يصلون الفروض والنوافل فى أوقاتها .. ويعاينون الكعبة طيلة الوقت ، فإذا سجد الإمام وأطال السجود ، وأحببت أن تدعو ودعوت ، اشتقت أن ترفع رأسك لتعاين الكعبة وأنت ترفع رأسك .

أسراب الحمام هنا تطوف حول الكعبة ، لكنه لا يقترب أبداً منها ، ولا يحط أبداً عليها ، وذلك يثير دهشتك تمامًا .. كأن

هناك حاجزاً غير مرئى يحول بينه وبين الوقوف عليها .. عدد الحمام كثير .. أكثر من نصف مليون حمامة . .تتوالد وتعيش وسط حب وسلام عظيمين .. صيده حرام .. ليس لأى حمام فى الدنيا هذه الميزة .

السماء فوق الكعبة تمامًا بغير نجوم . . عبثًا حاولت البحث عن نجم واحد متألق فلم أر غير الكعبة ، بعد ربع ساعة يقومون لصلاة المغرب . لا يقرأ القرآن إلا فى الصلاة .. ليس هناك قارئ يتغنى بآيات الله ، ويهتز المصلون حوله ، إعجابًا بحلاوة الصوت أو جمال الأداء .

ثمة لون من الجدية يميز كل شيء هنا . . ومع الجدية والصفاء والشفافية .. ستقع فى هوى الكعبة .. وستصبح الصلاة قرة عينك .. أى سلطان من سلاطين الأرض يرضى أن يقابل رعاياه مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم ؟ فكيف برب الكون وهو يقدم إليك فرصة اللقاء خمس مرات كل يوم .. ستمر علينا ليلة القدر فى المسجد الحرام .. ستسبح الكعبة ليلتها فى دموع المصلين أثناء صلاة القيام وصلاة التهجد .. يقيمون صلاة التهجد فى الثلث الأخير من الليل .. حيث تنزل

رحمة الله تعالى إلى السماء الدنيا .

- متى تزور المسجد النبوى ؟..

كنت أقول :

لا أريد أن أترك الكعبة .. ثم تذكرت قوله ﷺ : (من زار المسجد الحرام ولم يزرنى ، فقد جفانى حقًا) .

من الذى يجرؤ على أن يجفوك يا رسول الله ؟!.. من الذى يجرؤ ؟!..

سنطوف بالكعبة طواف الوداع .. سبع مرات ، تدعو فى كل مرة بما تشاء .. خيل إلىّ أن جسدى فى جوف حوت يجرى فى ظلمات البحر والليل والخطيئة .. ولم أستطع أن أدعو بغير دعاء ذى النون : (لا إله إلا أنت . . سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) .

هل تعرف بم تحس وأنت تغادر الكعبة ؟.. تصور أعظم حب عبر حياتك ، تذكر لحظات انفصالك عنه .. تذكر إحساسك المفتت بالأسى والحزن والضياع .. كنت تشتعل بالنار وداخلك ثلج الفراق الصدئ .. اضرب إحساسك هذا فى نفسه ملايين المرات .. هذا تشبيه ساذج لما تحسه وأنت تمضى

عن الكعبة ستقول وأنت تمضى عنها : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) .. لعلك تعود مرة أخرى .. لعلك تعود .

الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة خمسمائة كيلو متر .. تقطعها أعظم السيارات فى ثمانى ساعات .

اللون الأصفر الفاتح هو اللون الغالب .. أتحداك أن تحدق فى الرمال دقائق بغير أن تخطف صفرتها بصرك .. أى وحشة عميقة تشى بها الرمال .. هناك جبال قاسية ، تصطف وتبدو كوجوه أسطورية ترقد على ظهرها وقد تجمدت .. حتى الهواء هنا بلا صوت .. يجئ لا تعرف من أين ، ويمضى لا تعرف إلى أين ! ! ويمضى بغير صوت .. لو وقفت وسط الصحراء ثلاث دقائق ، فسوف تحس بالخوف .. حاول أن تنسى السيارة التى تقف فى الطريق المسفلت حاول أن تنسى ترمس المياه المثلجة ، وتصور أنك تقف وحدك هنا .

الفكرة تدفع للجنون .. عبثًا تعثر على صديق واحد فيما تراه حولك من مشاهد .. أضف إلى تصورك تصور آخر .. إنك مطارد . . هناك من يطلب دمك . . بم تحس الآن ؟!..

كذلك خرج رسول الله ﷺ يومًا من مكة إلى طيبة مهاجرًا

بدينه ودعـوته .. خـرج بسـببك أنت .. خـرج كى يبلغك أنت دعوته .. هذا مسجد رسول الله ﷺ .. ستصلى ركعتين وأنت تحس بخشوع يختلف عن خشوعك فى الكعبة .. هناك صليت فى مقـام أبى الأنبيـاء إبراهيم .. وتصلى الآن فى مقـام آخر المرسلين ، وسيد البشر .. هذا قبر نبيك الذى قاسى ما قاساه من أجلك .. والصلاة والسلام عليك يا رسول الله .. أرجو أن تغفر لى جرأتى فى الوقوف ببابك .. وعسى ألا يؤذى مثلك سلام مثلى .. الصلاة والسلام عليك يا رسول الله . .

هل تبكى ؟..

أتحس أنه مات بالأمس فقط ؟..

أتحس أنه لو خرج من نومه فسوف ينكر مرآك بقلة فقهك وفراغ عقلك من العلم وجدب قلبك من الإيمان ؟..

أتقول ما قاله الغزالى حين وقف أمام قبره ﷺ :

يا خير من دفنت فى التراب أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكم

لا تلمس بيـدك نحـاس الضـريح .. لا تقف ويداك وراء ظهرك .. ولا تقف ويدك معقودتان على صدرك ، قف ويداك جوارك .. نكس رأسك .

أتراك تحس أنك تستحق هذا النبى ؟..

أتراك تستحق ما فعله من أجلك ؟..

أتراك فعلت أنت شيئًا لدينه .. غير الصلاة عليه بالشفاه والقلب غارق فى المعصية ؟..

هل تريد أن تدعو الله ؟.. اعط ظهرك للضريح الكريم ، واتجه إلى القبلة .. اتجه إلى الكعبة .. تستطيع الآن أن تدعو .. لا تعرف بأى شىء تدعو .. ماذا لو دعوت أن يغفر الله لك أنك مسلم والمسجد الأقصى أسير ؟!..

# سيد العظماء

من الكتب الهامة التى ظهرت فى أمريكا كتاب اسمه (المائة).. والكتاب مجلد ضخم يقع فى ستمائة صفحة تقريباً، ويحاول الكتاب ترتيب أهم مائة شخصية أثرت فى تاريخ الإنسانية..

إن أحداً لا يكره النفوذ، بل إن الناس يسعون إليه، وكل واحد من هؤلاء المائة كان يملك نفوذا هائلا، وكان يحرك مصائر الملايين والبلايين، وكان يتحكم فى صعود الحضارات أو هبوطها، كما كان كل واحد من هؤلاء المائة يملك القدرة على تحويل مجرى التاريخ .. مؤلف الكتاب هو الدكتور ميشيل هارت، وهو أصلا أستاذ فى الرياضيات والطبيعة والفلك، وقد عمل فى مشروع غزو الفضاء، ولا علاقة له بالتاريخ أو فلسفته أو الأديان المقارنة.

من تظنه وضع على رأس المائة الذين أثروا فى تاريخ العالم ؟..

لقد قدم الدكتور ميشيل هارت مفاجأة.. لم يختر المسيح ولم يختر كارل ماركس.. وإنما اختار محمدا .. نبى الإسلام .. الثانى بعده هو اسحق نيوتن .. الثالث بعده هو السيد المسيح

.. الرابع هو بوذا والخامس هو كونفشيوس .

ومما يلفت النظر أن هذا العالم الأمريكى قد اختار عمر بن الخطاب ليكون الشخص رقم ٥٠ فى عدد المائة الذين اعتبرهم مسئولين عن تحول البشرية .

قال النقاد عن الكتاب : إنه يتحداك ويقنعك، وحتى لو رفضت أن تقتنع فإن ما يقدمه الكتاب سوف يستولى على عقلك فى نفس الوقت الذى يمتعك فيه .. والمتعة هنا هى متعة تحليلية يقدمها رجل عالم فى الفلك والرياضيات، وله معاييره التى تختلف عن معايير أساتذة التاريخ .. وينبهنا المؤلف فى بداية كتابه إلى أنه لا يقصر الأهمية على معنى العظمة .. فكتابه عن الأهمية .. بمعنى التأثير الحقيقى على إدارة عجلة التاريخ .. والقدرة الفعلية على تحويل مجراه .

يحكى فولتير فى كتابه (رسائل عن الإنجليز) أنه خلال إقامته فى إنجلترا سنة ١٧٢٦ قابل مجموعة من المثقفين الذين طرحوا سؤالا يقول من كان أعظم الناس.. قيصر ؟.. الاسكندر الأكبر ؟.. تاليران ؟.. أو كرومويل ؟.. وقرر أحد المثقفين أن إسحق نيوتن هو أعظم الجميع بلا استثناء.

فولتير فى تحليله يرى أننا بفضل نيوتن صرنا نحكم عقولنا بقوانين الحقيقة ولا نذلها بالعنف أو نلفق لها الأكاذيب والدجل .. وهذا معيار العظمة عند فولتير .

ما هو معيار العظمة ومعيار الأهمية عند المؤلف الأمريكى؟ وعلى أى أساس اختار العالم الأمريكى محمداً النبى العربى ليكون الأول ؟..

يعتبر الكاتب الأمريكى ميشيل هارت أن محمداً هو الوحيد صاحب النفوذ الأعظم على التاريخ الإنسانى .

ويفرد الكاتب فى كتابه (المائة) .. سبع صفحات عن رسول الله ﷺ ، من بين الصفحات السبع صفحتان تحتلهما خريطة للمد الإسلامى، ونصف صفحة تحتلها لوحة لرسام تخيل جيش المسلمين وهو يغزو تحت علم الله، وهذا الفصل الذى يعطيه الكاتب عنوان (محمد) .. هو أطول فصول الكتاب، فليست هناك شخصية تزيد عن ست صفحات، ومعظم الصفحات عن الشخصيات تحتلها الرسوم والصور، والكلمات التى تحدث فيها عن الرسول لا تزيد عن ١٥٠٠ كلمة، وأسلوب الكاتب مركز جداً، وهو يستند إلى معلومات دقيقة، والإحساس الذى يخرج به القارئ أن الكاتب الأمريكى قرأ بعمق آلاف

الصفحات وفهمها جيداً قبل أن يكتب .

وعقل الكاتب من نوع غريب، وربما كانت غرابته هى مصدر قوته فى نفس الوقت، فالمؤلف عالم فى الرياضيات والطبيعة والفلك، وهذه العلوم ليس فيها لف ولا دوران، كما أنها علوم ليس فيها تعبير أو إنشاء، فأنت لا تستطيع مثلا أن تحل مسألة هندسية بالتغزل فى جمال المثلث أو وصف دوران الدائرة.

نحن أمام علوم من لون خاص، وسر لونها الخاص أنها تحقق ما لا يمكن النفاذ إليها إلا عن طريق مفاتيحها الصحيحة .

ولقد قرأت عن الرسول ﷺ لمؤلفين عرب ومؤلفين من غير العرب، وقرأت عنه لمؤلفين مسلمين ومؤلفين غير مسلمين، وقرأت عنه لمن يحبه ولمن يكرهه ويكيد له، فلم أر مؤلفا فى إيجاز ميشيل هارت، إنه يستعرض قصة حياة الرسول وقصة حياة الدعوة فى صفحة ونصف، ويفرد ما يقرب من ثلاث صفحات ونصف لتحليل سر اختياره لمحمد ليحتل المركز الأول فى التأثير على عجلة التاريخ. والمؤلف ليس مسلما من أتباع محمد ليقال إنه جامله واختاره ليكون أعظم المؤثرين فى التاريخ الإنسانى، على العكس من ذلك، المؤلف مسيحى من

أتباع عيسى، ولأن ميشيل هارت عالم فى الطبيعة والفلك يسيطر عليه حياد علمى من لون غريب، ويسيطر عليه منطق العلماء فى التحليل والتركيب، وأى كاتب عربى مثلا لا يستطيع أن يقارن محمداً بعيسى، ويخرج من مقارنته بأن أحدهما كان له تأثير أكبر من الآخر على التاريخ، ولكن ميشيل هارت يفعل ذلك دون خشية، وأى كاتب عربى يتحرج أن يقارن بين حروب الإسلام وحروب المغول، ولكن ميشيل هارت يفعل ذلك ببساطة دون حرج.. وينتهى إلى تفضيل حروب الإسلام على أى حروب أخرى فى التاريخ .

ولو سمح لى القارئ فسوف أترجم له ما قاله ميشيل هارت عن الرسول، وسوف أسمح لنفسى بالتعليق كلما رأيت الأمر يوجب التعليق ... لماذا .. الأول ؟..



يقرر المؤلف الأمريكى ميشيل هارت فى كتابه عن (المائة الأكثر نفوذا فى التاريخ الإنسانى)، أنه اختار ذوى النفوذ بالمعنى الكامل، ولذلك لم يقنع بالشهرة، أو الوضع الإنسانى، أو ذيوع الذكر، أو الموهبة، أو نبل الشخصية فقط، وإنما كان يبحث عن النفوذ بمعنى: القدرة على تغيير مجرى التاريخ والتأثير فى البشر..

يقول فى مقدمة كتابه: عندما أبحث عن ترتيب الأهمية لشخص ما، فإننى أعطى اعتبارا خاصا للحركة التاريخية التى كانت ثمرة لجهده، وعموما لا تقع حركات التاريخ نتيجة جهد فردى، ومن هنا تبرز أهمية النفوذ الذى يملكه شخص ما، ويستطيع من خلاله أن يقنع الآلاف أو الملايين بإحداث تغيير فى الحضارة أو التاريخ.. ولعل المثال المثير على ذلك ترتيبى لمحمد صلى الله عليه وسلم، ووضعه فوق عيسى عليه السلام.. فأنا مقتنع بأن محمداً كان له نفوذ فى تكوين العقيدة الإسلامية، أكثر من نفوذ عيسى فى تكوين العقيدة المسيحية، وليس معنى هذا أننى أفضل محمداً على عيسى..

ويقول المؤلف فى بداية فصله الأول وعنوانه (محمد ٥٧٠ - ٦٣٢): إن اختيارى لمحمد ليكون الأول بين ذوى النفوذ المؤثرين فى العالم قد يدهش بعض القراء، ويصير مثار تساؤلات من البقية، ولكنه هو الوحيد فى التاريخ الذى كان امتيازه متكافئا على المستوى الدينى والدنيوى .. وبأصول متواضعة أسس محمد ديانة من ديانات العالم العظيمة، وأصبح زعيما سياسيا، ورغم مرور أكثر من ١٣ قرناً على وفاته، لا يزال نفوذه الدينى والسياسى عميقاً ومستمراً .

ومعظم شخصيات هذا الكتاب (يقصد بقية الـ ٩٩)، كانت عندهم فرصة الميلاد والنشوء فى مراكز للحضارة الإنسانية، ولكن محمداً ولد سنة ٥٧٠ فى مدينة مكة التى تقع فى الجزيرة العربية، وكانت الجزيرة العربية يومئذ منطقة متخلفة من مناطق العالم، تبعد كل البعد عن مراكز التجارة والفن والتعليم، أصابه اليتم فى السادسة، وتزوج فى الخامسة والعشرين من أرملة ثرية، واقترب من عامه الأربعين، وكان العرب فى هذا الوقت وثنيين، يؤمنون بآلهة متعددة، وفى سن الأربعين آمن محمد بأن الله الواحد الذى يحكم الكون يُوحِى إليه، وقد اختاره لينشر الإيمان الحقيقى .. وعلى امتداد ثلاث

سنوات دعا محمد أصدقاءه المخلصين سراً إلى الإسلام، وفى حوالى سنة ٦١٣ بدأ دعوته علانية، واعتبرت سلطات مكة أن وجوده يمثل خطراً عليها ، ولأسباب تتعلق بالأمن خرج من مكة إلى المدينة (وهى مدينة تبعد ٢٠٠ ميل شمالى مكة)، وهناك صار له مركز سياسى مرموق.. وهذا الخروج الذى يسمونه (الهجرة)، كان نقطة تحول فى حياة الرسول وحياة الدعوة .

يقول ميشيل هارت فى فصله الأول عن (محمد) : كانت الهجرة .. نقطة تحول فى حياة الرسول، فقد كان أتباعه قلائل فى مكة، وزاد أتباعه فى المدينة وصار له نفوذ الحاكم المطلق الفاضل، وخلال السنوات التالية، وفى نفس الوقت الذى زاد فيه أتباع الدين الجديد، جرت عدة معارك بين المدينة ومكة، وانتهت هذه الحروب سنة ٦٣٠ بانتصار محمد وعودته إلى مكة فاتحا، وقد بقيت سنتان ونصف فى حياته بعد ذلك، وشهدت هذه الفترة دخولا سريعا للقبائل العربية فى الدين الجديد، وعندما مات محمد سنة ٦٣٢ ، كان هو الحاكم المؤثر فى الجزيرة العربية كلها .

والمعروف عن القبائل العربية شهرتهم كمحاربين أشداء، ولكن عددهم كان قليلاً، وكانوا مطعونين بالانقسام ممزقين من الحروب الداخلية، ولم تكن لديهم أية إمكانية للتصدى لجيوش الممالك الزراعية المستقرة فى الشمال .. ولكنهم بعد اتحادهم تحت راية محمد، وللمرة الأولى فى التاريخ، وبسبب توحدهم فى الإيمان بالله الواحد .. بدأت الجيوش العربية تشق طريقها

فى سلسلة من الغزوات التى تثير الدهشة بشكل لا تثيره أى غزوات أخرى فى التاريخ .

ففى الشمال الشرقى تستقر إمبراطورية الفرس، وفى الشمال الغربى ترقد الدولة البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولم يكن يدور بخاطر أحد أن العرب يمكن أن يواجهوا أيا من هاتين الإمبراطوريتين، ولكن الذى حدث أن الجيوش العربية بدأت غزو هاتين الدولتين، وبعد فتح فلسطين وسوريا فتحت مصر سنة ٦٤٢، وسُحقَت الجيوش الفارسية فى معركة القادسية سنة ٦٣٧ ونهاوند سنة ٦٤٢ .. وهذه الحروب الجبارة التى تمت تحت زعامة أصدقاء محمد وخليفته عمر بن الخطاب لم تشكل نهاية التقدم العربى، ففى سنة ٧١١ اجتاحت الجيوش العربية شمال إفريقيا ووصلت إلى المحيط الأطلسى، ثم استدارت شمالا، وعبرت جبل طارق وهددت مملكة إسبانيا..

وبدا واضحا أن العرب يمكن أن يكتسحوا أوروبا المسيحية، ثم حدث سنة ٧٣٢ فى معركة تور أن أوقف تقدم الجيش العربى فى فرنسا، وهُزم من الفرنجة، كما دخل الساحل

الشمالى لإفريقيا فى الإسلام، ومن المدهش ورغم كل شىء نجحت الجيوش العربية بإلهام من كلمات الرسول فى نحت إمبراطورية تمتد من الهند إلى المحيط الأطلسى، وهى أضخم إمبراطورية شهدها التاريخ الإنسانى .. ومع كل بقعة أرض احتلتها الجيوش العربية، كان الدين الجديد يكسب أتباعا جددا من البشر .

ما الذى بقى حتى اليوم من هذه الإمبراطورية ؟..

هذا هو السؤال الذى يطرحه الكاتب الأمريكى .



## الدليل على نفوذه

يتساءل الكاتب الأمريكى ميشيل هارت عن غزوات الإسلام للدول المسيحية أو الوثنية، هل بقيت على إسلامها بعد رحيل الجيوش ومرور القرون أم لا ؟..

ويكتشف من سياق الإجابة على سؤاله سر عظمة الرسول أو سر نفوذه، لقد بقيت حضارتان من أقدم حضارات العالم تحت مظلة الإسلام.. هما مصر الإسلام والعراق فلم يصبغ هذه الدول بلون العقيدة الواحدة، وإنما صبغها بالصبغة العربية أيضا، ودخل الملايين من أهل الحضارات القديمة فى ديانة العرب، ولما كان عدد المسلمين يتساوى مع عدد المسيحيين فى العالم تقريباً، فمن الغريب أن يعطى نبى الإسلام محمد رتبة أعلى من رتبة عيسى .

يتساءل ميشيل هارت هذا التساؤل فى كتابه، ويسوق سببين لاختياره :

السبب الأول أن الدور الذى لعبه محمد فى تطور العقيدة الإسلامية أضخم (فى رأيه) من الدور الذى لعبه عيسى فى تطور العقيدة المسيحية.. فعلى حين انفرد رسول الإسلام

بتطوير الإسلام وحده، وضع عيسى أسس القواعد الأخلاقية المسيحية، وقام القديس بولس بتطوير العقيدة المسيحية وكتابة الإنجيل، وعلى المستوى العقائدى البحت يفترض الكاتب الأمريكى أن محمداً وعيسى يتساويان فى النفوذ الدينى، ولكن رسول الإسلام بعكس عيسى كان زعيما دنيوياً إلى جوار كونه زعيما دينيا، وبوصفه المحرك الأول لغزوات الإسلام يمكن القول إنه أكثر الزعماء السياسيين نفوذا فى العالم .

وهناك أحداث تاريخية كان لابد أن تقع حتى لو لم يوجد الزعيم الذى وجهها، مثال ذلك مستعمرات أمريكا الجنوبية، كان لا بد أن تحصل على استقلالها من إسبانيا حتى لو لم يعش سيمون بولفار .. ولكن هذا المنطق لا يمكن تطبيقه على غزوات الإسلام، فلم يكن ممكنا أن تقوم هذه الغزوات بغير محمد .

والغزوات الوحيدة التى يمكن مقارنتها بحروب الإسلام هى غزوات المغول فى القرن الثالث عشر، لقد نشأت هذه الغزوات بقيادة، وامتدت أكثر من امتداد الغزو العربى، ولكنها لم تصمد للزمن كحروب الإسلام، وإنما انحسرت بعد سنوات

وعادت مملكة المغول إلى التقلص، وتختلف الغزوات العربية في تأثيرها تماما، فليست هناك أرض قد تأثرت بقيم القرآن كالأرض العربية، وتتحد الدول العربية - رغم كل خلافاتها وتناقضاتها الظاهرة - في الإيمان بالقرآن، وفي وجود لغة عربية واحدة تربط بينها، كما تتحد في التاريخ والثقافة، ورغم مرور ١٣ قرناً من الزمان أو أكثر، لا تزال حروب محمد تؤثر في العالم، وبقاء الدول العربية ومواقفها المتقاربة دليل على ذلك .



## رسول الله

يرى المؤلف الأمريكى ميشيل هارت أن محمد بن عبد الله الرسول العربى الذى ولد فى مكة، كان أعظم البشر نفوذا وتأثيراً فى التاريخ الإنسانى، وهو يسوق أسبابه الوجيهة التى تضع اختياره على رأس القائمة البشرية.. ويعرف المسلمون عن رسولهم أسباباً أخرى تجعله يحتل هذا المقام.. يحدثنا القرآن الكريم أن هناك خمسة من الرسل هم أولو العزم الكبار وهؤلاء هم الذين أخذ الله منهم ميثاقاً غليظا، وهم بترتيب بعثهم إلى الناس سادتنا : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. عليهم الصلاة والسلام .

أما نوح فهو صاحب الطوفان، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله وعيسى كلمة الله ومحمد هو رحمة الله.

كانت معجزة إبراهيم تحول النار حين ألقى فيها إلى برد وسلام، وكانت معجزات موسى هى شق البحر والعصا واليد، وكانت معجزات عيسى هى إحياء الموتى وشفاء ما لا يشفى من الأمراض بإذن الله.. ونلاحظ أن هذه المعجزات كلها مادية ومؤقتة بزمان محدد، هو زمن النبى الذى وقعت فى عصره،

ولهذا اختفت هذه المعجزات بموت من مات من هؤلاء الأنبياء أو برفعهم إلى الله.

أما معجزة الرسول فلم تزل فى أيدينا كل يوم .. القرآن الكريم .. ونلاحظ أن معجزة الرسول كانت كتابا.. كما نرصد أن أول كلمة نزلت من القرآن كانت اقرأ.. وهذا كله يعنى أن معجزة النبى ﷺ كانت تتصل بالفكر .. كانت افتتاحاً لعصر النضج العقلى وإيذاناً ببدايته. ولهذا الأمر دلالته .

وقد لاحظ المؤلف الأمريكى ميشيل هارت اختلاف غزوات المغول، وأدرك أن سيوف المغول كانت تبرق فى الظلام لمجرد الغزو، أما سيوف المسلمين فكانت كمشرط الجراح تبرق بفكرة الشفاء والخلاص من الألم .. وهذا هو السر فى ذهاب فتوح المغول وبقاء الفتوحات الإسلامية .. ورغم موت الرسول ﷺ منذ ١٤ قرناً فإن تأثيره لا يزال حيا وموجوداً ويمارس نفوذه .

وعلى المستوى الشكلى البحت لايزال بعض المسلمين يطلقون لحاهم ويقصون شواربهم اقتداء برسول الله فى مظهره.

وعلى المستوى الموضوعى يصلى جميع المسلمين كما علمهم الرسول، ويتعبدون كما أمرهم، ويحاولون التصرف كما كان يتصرف، مدركين أنه هو المثل الأعلى للإنسان، عارفين أنه

شمس الكمالات البشرية .

والحقيقة أن رسول الله ﷺ كان سيد البشر فى الكمال الإنسانى لا ينازعه منازع.. وهناك أسباب كثيرة لذلك .

**سيد العظماء**

يحلو لكثير من الناس أن يسأل :

هل كان رسول الله سيد البشر فى الكمال الإنسانى. أم أنه صار سيد البشر حين اختاره الله لنشر الإسلام ؟.. والسؤال يحاول أن يعرف هل كان فضل الرسول سببا لاختياره أم نتيجة لهذا الاختيار ؟..

الجواب الصحيح فى تصورى أن فضل الرسول وسيادته على البشر كانا سببا ونتيجة معا .. وفى الرقى والتركيب لا تتوقع إجابة ساذجة على سؤال بسيط .

أقرب إلى المنطق أن تجىء الإجابة معقدة .

لو لم يكن رسول الله هو سيد البشر لما اختير لحمل رسالة نهائية ينزل الستار بعدها على الأنبياء ويتوقف وحى السماء للأرض .. والله هو الكمال المطلق بلا تحديد ولا تصور .. فإذا اختار الله سبحانه انصرفت مشيئته إلى الكمال .. والأصل فى الاختيار الإنسانى أنه يبحث فى الرسول عن صفات جوهرية كالأمانة والفضل والقدوة والشرف وذلك

لضمان توصيل الرسالة كما هى .. واختيار الله هو الدقة المطلقة ويختلف تماما عن الإنسان الذى يحكم بالظن والتصور، إذ يختار الله تعالى وهو يعلم حقيقة الضمائر ومزاج القلوب ومعادن النفوس .

نفهم من هذا أن جميع أنبياء الله كانوا أشرف الخلق قلبا وقالبا، وكانوا أفضل المعادن البشرية على الأرض .

وهذا هو الأصل فيهم قبل اختيارهم للرسالة .

فإذا وقع عليهم اختيار الله عز وجل، أضاءوا بشرف يستمدونه من جلال الله ذاته .. وأضاءوا بشرف مهمتهم الجديدة فى تصحيح فكرة الإنسان عن الخالق .

وهكذا يزيد قدر النبى - أى نبى - بعد البعثة إلى الناس وتكليفه بالرسالة .. يزيد قدره شرفا ويبدأ الصعود من القمة التى كان فيها إلى قمم أخرى لا نعلم عنها نحن التوابين المذنبين شيئا .

وكل أنبياء الله كانوا قمما شامخة فى الكرامة الإنسانية واحترام الإنسان .. وكان رسول الله ﷺ هو آخر الأبنية الشامخة، ولهذا جاء فضله أعلى فضل يطيقه تركيب الإنسان المدهش .

تأمل عظمة الرسول من أى زاوية تحب .. ابدأ دراسته من أى مستوى تختاره .. لن تجد غير بيت الشعر القائل:

يا سماء ما طاولتها سماء .

**ميشيل هارت**

**ترجمة : أحمد بهجت**



رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٣١٥ / ٢٠٠٤